قياصرة وسلاطين

قياصرة وسلاطين
حبيب جاماتي
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

حبيب جاماتي. – قياصرة وسلاطين
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٨١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٥ – ٠ – ٨٦٦١٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٢٩٣ / ٢٠٢٣

قياصرة وسلاطين

حبيب جاماتي

إهداء

إلى الأصدقاء الذين نقلوا لي، باللغة العربية أو الفرنسية، من المكتبات التركية واليونانية، مقتطفات من مخطوطات قديمة قيمة، ساعدتني في صياغة بعض هذه القصص عن قياصرة الروم في "بيزنطة" وسلاطين آل عثمان في "الآستانة" أهدي هذا الكتاب اعترافًا بفضلهم، وتقديرًا لمعونتهم، وأشفع هذا الإهداء بتحية خالصة إلى الباقين على قيد الحياة منهم — طالت أعمارهم — وبدمعة حارة على مثوى الذين حوتهم الأكفان فأمسوا، مثل هذه القصص، قطعة من الماضي، تغمدهم الله برحمته!

القاهرة

ح. ج

تصدير

حوادث هذه القصص المستخلصة من هوامش التاريخ، وقعت كلها في نطاق الإمبراطورية الرومية والإمبراطورية العثمانية السابقتين: الأولى زالت من الوجود، والأخرى تقلص ظلها، وتعرف البقية الباقية منها اليوم باسم "تركيا" أو الجمهورية التركية.

الأولى حكمت جزءًا من بلدان العرب، والأخرى بسطت سلطانها على معظم هذه البلدان.

عاصمة الأولى أصبحت، بعد هزيمة آخر القياصرة، عاصمة للأخرى ومقرًّا للسلطان.

ولهذه العاصمة أسماء عدة: ليفوس، بيزنطة، قسطنطينية، إسلامبول، استانبول، آستانة.

كانت قبل الميلاد قرية صغيرة، وأطلق عليها اسم "بيزانس – بيزنطة" جماعة من المهاجرين الإغريق وتوافد عليها الغزاة، فوجًا بعد فوج، إلى أن طوتها دولة روما بين حدودها، فأصبحت تابعة للمدينة العظيمة التي حكمت العالم المعروف في وقت من الأوقات.

كان الرومانينون وثنيين، وفي القرن الرابع للميلاد، قرر الإمبراطور قسطنطين قيصر، الملقب بالكبير، أن يعتنق المسيحية ويجعلها دين الدولة الرسمي، وأن ينقل عاصمة الإمبراطورية من الغرب إلى الشرق، فوقع اختياره على بيزنطة، وأطلق عليها اسمه، فعرفت باسم "قسطنطينية" منذ

اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة ٣٣٠ للميلاد.

وأحيطت العاصمة الجديدة، في الأعوام التالية، بأسوار منيعة وأبراج شاهقة، وساعد موقعها على تحصينها، فهي تمتد على الساحل عند ملتقى مضيق البوسفور ببحر مرمرة الداخلي، ويشقها إلى شطرين لسان مائي يعرف بالقرن الذهبي – لأنه يشبه القرن – وهو من أحسن الموانئ الطبيعية، ويربط البوسفور بين المدينة والبحر الأسود إلى الشرق، ويربط مضيق الدردنيل بينها وبين البحر المتوسط إلى الغرب.

ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين، بقيت "روما" عاصمة الدولة الرومانية الغربية السائرة إلى الانهيار، وأصبحت "بيزنطة" أو "قسطنطينية" عاصمة الدولة الرومانية الشرقية الصاعدة، وهي التي يعرفها العرب باسم "الدولة الرومية" أو "دولة الروم" وقد تغلبت فيها الصبغة الإغريقية اليونانية على الصبغة اللاتينية الإيطالية، التي امتازت بها روما وإمبراطوراتها.

عاشت الإمبراطورية الرومية الشرقية أو إمبراطورية بيزنطة أكثر من ألف ومائة سنة، فقد هاجم العرب أطرافها في القرن الهجري الأول، والسابع للميلاد، واقتطعوا منها أقاليم عدة في الشرق الأدنى وفي أفريقيا، فانكمشت مع الأيام واقتصرت ممتلكاتها على العاصمة والبقاع المجاورة لها في البلقان وآسيا الصغرى، وجاءتها الضربة القاضية على أيدي الغزاة الترك، فاستولى السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح على مدينة قسطنطينية سنة ١٤٥٣. وطويت بذلك الحادث آخر صفحة من تاريخ الإمبراطورية الرومية.

وحلت قسطنطينية محل أنقرة وأدرنه أو أدريانوبولس، العاصمتين العثمانيتين السابقتين، فأصبحت المدينة الرومية عاصمة السلطنة العثمانية، وعرفت منذ ذلك الوقت باسم "إسلامبول – استانبول – آستانة".

وختم تاريخها كعاصمة للعثمانيين بعد الحرب العالمية الثانية، يوم أنشأ مصطفى كمال أتاتورك النظام الجمهوري، وأسقط النظام الملكي، وطرد السلطان، وجعل مدينة أنقرة، مرة أخرى، عاصمة للجمهورية التركية، كما كانت قبل ذلك ببضعة قرون، عاصمة للسلطنة الناشئة. وعلى هذا، تكون استانبول قد ظلت إذن عاصمة للدولة العثمانية مدة ٤٧٠ سنة!

وكان السلطان العثماني سليم الأول، في القرن الميلادي السادس عشر والقرن الهجري العاشر، قد جعلها مقرًّا للخلافة الإسلامية، التي أخذها آل عثمان من العباسيين، ففقدت استانبول هذه الصفة أيضًا، يوم أعلن الترك إلغاء الخلافة في بلادهم.

فمن هذه المدينة المتعددة الأسماء، حكم القياصرة الروم ثم السلاطين العثمانيون، إمبراطورية واسعة المساحات مترامية الأطراف، وبين العهد البيزنطي والعهد العثماني، نشأت الإمبراطورية العربية وترعرعت وحكمت من دمشق والقاهرة وبغداد معظم البلدان التي خضعت من قبل للحكم البيزنطي، أو خضعت من بعد للحكم العثماني، وشملت الإمبراطورية العربية بلدانًا أخرى لم يمتد إليها سلطان البيزنطيين والعثمانيين، في آسيا وأفريقيا وأوروبا.

فتاريخ القياصرة والسلاطين الذين كانت بيزنطة أو قسطنطينية أو الآستانة مقر عروشهم، له ارتباط مباشر أو غير مباشر بتاريخ الأمة العربية،

والتطورات التي مرت بها الشعوب التي تتألف منها عدة الأمة.

فقبل قيام الدولة العربية.. كان العرب تابعين للقياصرة الروم في بيزنطة، وبعد انهيار الدولة العربية أصبحوا تابعين للسلاطين العثمانيين في الآستانة، فقيام الدولة العربية في القرن الميلادي السابع حررهم من الحكم البيزنطي، وبعث القومية العربية في القرن العشرين حررهم من الحكم العثماني.

وتاريخ القياصرة والسلاطين مليء بالدروس والعبر والعظات، والقصص التي يضمها هذا الكتاب ترفع طرفًا من الستار عن خفايا ذلك التاريخ في بعض أحقابه — وعنوان هذه المجموعة: "قياصرة وسلاطين" يدل على حصرها في حدود ذلك التاريخ.

وهذه الحلقة الجديدة تضم عشرين قصة وقعت جميع حوادثها في مدينة بيزنطة، أو قسطنطينية، أو إسطنبول، أو الآستانة، في عهد القياصرة الروم أو في عهد السلاطين العثمانيين، أو كانت ناحية أخرى من بقاع الإمبراطورية الواسعة مسرحًا لها.

حبيب جاماتي

القاهرة: في شعبان ١٣٨٢هـ

يناير — كانون الثاني — ١٩٦٣م

عرش في المزاد

إن عزرائيل يعرف أحيانًا كيف يختار الوقت المناسب للقبض على الأرواح؟

الإمبراطورة تيودورا

عاد يستينوس في تلك الليلة، إلى داره الفخمة، التي على ضفاف البوسفور، في ساعة متأخرة، وقد بدا عليه التعب، ولكنه تعب ممزوج بالغبطة والارتياح..

وأقبلت زوجته فاتحة ذراعيها، مرحبة به عند الباب. فهي عادة سارت عليها منذ اتخذها القائد الشجاع شريكة لحياته.

تعانق الزوجان عناق شابين محبين، بالرغم من ولوجهما باب الشيخوخة، واشتداد وطأة السنين على أكتفهما، فهو في السادسة والستين من العمر، وهي ليست أصغر منه بكثير!

وقالت "لوسيبيا" بصوت فيه خشونة وحنان في آن معًا:

– شغلت بالي بتأخرك أيها الحبيب!

فأجاب يستبنوس بصوت لا يقل خشونة ولا حنانًا عن صوت زوجته:

– ليست هذه أول مرة أيتها الحبيبة أعود فيها إلى البيت في منتصف الليل، فعلى قائد الحرس الإمبراطوري في بيزنطة واجبات كثيرة

- إن العاصمة في قلق، والخواطر هائجة، والجو ملبد بالشكوك.

- لا غرابة في أن تكون الحالة على ما وصفتها، فإن إشراف الإمبراطور على الموت، وخلو العرش من بعده، وتردد عظماء الدولة وقادتها في اختيار خلف للعاهل المحتضر، كل ذلك ليس من شانه بعث الطمأنينة في النفوس، ولكننا اليوم وصلنا إلى حل لهذا التردد؟

- كيف ذلك؟

- إنني لا أخفي عنك شيئًا يا لوسيبيا، فاعلمي أن "أمانثيوس" الوزير الأول، القابض على بيت المال، راغب في المناداة بصديقه "تيودات" إمبراطور على بيزنطة، خلفًا للإمبراطور (انستاسيوس)

وقد أفرغ أمله في، وأعطاني ثقته، ووضع تحت تصرفي خزائن الدولة، لكي أغترف منها ما أشاء، وأنفق بلا حساب، وأغدق المال على الناس بسخاء؛ لكي أضمن لتيودات الفوز بالعرش والقضاء على منافسيه.

- وقبلت هذا؟

- نعم!

- وقبضت المال؟

- أخذت مفاتيح الخزائن وأصبح المال في حوزتي!

- وستنفق منه لترفع تيودات إلى العرش، وتضع على رأسه تاج القياصرة، وتخضع له الخصوم والمنافسين، وتفتح له بجيشك الأقطار والأمصار؟

– نعم!

– وقطعت على نفسك عهدًا بهذا؟

– نعم، وأقسمت عليه!

ألقت لوسيبيا نفسها على مقعد، وارتسمت على فمها ابتسامة ساخرة، وانطلقت من بين شفتيها هذه الكلمات:

– كنت أظنك ذكيًا يا يستينوس، وإذا بك تثبت لي الآن بالأدلة والبراهين، إنك على جانب عظيم من البله والغباء!

وصعق القائد عند سماعه هذا التأنيب المؤلم، وجمد في مكانه كالصنم شاحب الوجه معقود اللسان!

لم يكن يستينوس بيزنطي المولد، ولا رومي النسب، بل إنه ينتهي إلى قبيلة من الصقلية ضاربة على ساحل البحر الأدرياتيكي. هناك رأى النور، وهناك نشأ حرًا طليقًا يرتع على الرمال، وفي داخل الأدغال.

وتطوع في الجيش البيزنطي منذ نعومة أظفاره، وانتقل من معسكر إلى معسكر، ومن بلد إلى بلد، يعيش مثل غيره من جنود ذلك العصر، يقاتل في المعارك وينبت بعد النصر، ويبحث من ملاذ الحياة حيث يجدها.

وفي إحدى غزواته، كان نصيبه من السلب جارية سمراء البشرة حادة البصر فارعة القامة مثله، فاتخذها عشيقة له، ثم زوجة حليلة.

ولما قادته الظروف والأحوال إلى البيزنطة، في سنة ٤٩٨ للميلاد، رافقته الزوجة السمراء لوسيبيا إلى العاصمة، وأقامت معه في دار من دور الضيافة،

في انتظار أن يصل إلى الهدف الذي جاء من أجله إلى عاصمة الإمبراطورية، التطوع في الحرس في الإمبراطوري!

كان يستنيوس في السادسة والأربعين، وكانت لوسيبيا في نحو الأربعين.

وفي بضعة أعوام، قطع الجندي المقدام، شوطا بعد شوط الطريق الطويل الشاق، الفاصل بين أسفل درجات الجندية وأرفع مراتب القيادة، فقد أصبح يستنيوس قارع طبول الحرس، لم حامل العلم، ثم ضابطا في فرقة الفرسان، ثم قائدا، وأخيرا أنعم عليه الإمبراطور انستاسيوس بلقب رفيع، ووضعه على رأس الحرس، وأختاره عضوا في مجلس الشيوخ.

وفي جميع تلك المراحل، كانت زوجته لوسيبيا الرفيق الوفي، والصديق الأمين، والمرشد المخلص.

كان يستنيوس من أصل وضيع، وكانت هي مثله، بل إن المرأة التي قدر لها أن تشارك الجندي المحظوظ في سرائه وضرائه، كانت في الواقع، قبل أن تقع في الأسر، جارية في بيت أسرة من الأسر الصقلية الغنية، ولكنها أثبتت، كما أثبت زوجها فيما بعد أن السيد الحقيقي ليس دائمًا ذلك الذي يتمتع بالثروة وينعم بالجاه، وأن العبد الحقيقي ليس دائمًا ذلك الذي اشتراه السيد الغني بماله، أو ساقه قائد منتصر أسيرًا بعد معركة، فكم من أسير مستعبد تجري في عروقه دماء أوفر نبلًا وأكثر صفاء من دماء فاسدة تجرفها الرذيلة في عروق أصحاب السطوة والجاه.

تلك كانت حالة يستنيوس، ابن الشعب الذي أصبح قائدًا لحرس قيصر، فرفعته كفايته إلى أعلى المناصب، ولوسيبيا زوجته، الجارية السبية،

التي حافظت على تواضعها، وأنارت الظلمات أمام زوجها بآرائها السديدة ونظراتها الثاقبة.

إنها لا تعلم من أين جاء أهلها، ولا من هم، ولا أين ولدت وكيف نشأت وبأي نزوة من نزوات الزمن أصبحت جارية تخدم في بيوت الأثرياء؟

قيل لها، وهي طفلة، إن أباها مصري وأمها يونانية، وقيل لها إنها رات النور في الإسكندرية، وإن أباها روماني من جزيرة صقلية.

كان رئيسا للكناسين في العاصمة المصرية، وقيل لها إن أمها إفريقية من برقة، سباها صقلي وجاء بها إلى جبال البلقان حيث ولدت هي، لوسيبيا، ثم ماتت الأم والأب، وتشردت الابنة، فعادت جارية مثل أمها.

وقيل لها غير ذلك من روايات لم تأبه لوسيبيا بها، لن حاضرها كان يشغل بالها أكثر من ماضيها، ولأن همها الوحيد كان تأمين غدها، لا كشف النقاب عن أمسها، وسواء أكان دمها مصريًّا أم يونانيًّا أم صقليًّا أم رومانيًّا، فإن المرأة كانت تشعر بأنها جديرة بحال أفضل من الحال التي كانت فيها، وأنها ولدت لتكون في مستوى رفيع.

وشاءت الأقدار أن تحمل لوسيبيا على أجنحتها وتعلو بها إلى القمة!

ذهبت إلى بيزنطة مع زوجها وهو جندي، وبعد سنوات أصبح الجندي قائدًا، وعضوًا في مجلس الشيوخ، وحامل لقب من أضخم ألقاب الشرف في الدولة.

وربطته صداقة متينة بالوزير الأول "أمانتيوس" فاصطفاه الوزير واتخذه أمينًا لأسراره، ولما أشرف الإمبراطور انستاسيوس على الموت، وفتح باب

التنافس على العرش، أفضى أمانتيوس إلى صدقه وصفيه يستينوس بما يجول في خاطره ويختلج في صدره: أنه يريد رفع "تيودات" إلى العرش، لأنه قريب الإمبراطور، ولأنه ضعيف الإرادة قصير النظر فلن يصعب على أمانتيوس أن يسيطر عليه، ويشرك في سيطرته الصديق الوفي يستينوس قائد الحرس!

وراقت الفكرة ليستينوس ووعد صديقه بأن يفعل ما يطلبه منه، ورجع إلى بيته في تلك الليلة، وهو يعتقد أن زوجته ستشاطره الرأي، وأنها سترتاح إلى الاتفاق الذي تم بينه وبين الوزير الأول.

ولهذا، جمد في مكانه كالصنم، شاحب الوجه معقود اللسان، لما فاجأته الزوجة قائلة بتهكم وسخرية:

- كنت أظنك ذكيًّا يا يستنيوس، وإذا بك تثبت لي الآن بالأدلة والبراهين أنك على جانب عظيم من البله والغباء!

ماذا كانت تريد لوسيبيا، وما الذي دعلها تسخر بزوجها وتتهكم عليه؟

إنها لا تفهم كيف أن الرجل الذي في وسعه أن يرفع غيره إلى العرش، لا يرفع نفسه إليه!

لا تفهم كيف يكون المال متوفرًا لزوجها، والفرصة سانحة، والميدان خاليًا، ليقبض على السلطة في الدولة البيزنطية، ويحل محل قيصر بعد موته، وينهض بالإمبراطورية من كبوتها، فلا يفعل شيئًا من ذلك، بل يعمل لحساب الغير، ويجلس على عرش القياصرة رجلًا خاملًا. خائر العزيمة، ويكتفي هو بدور ثانوي، في مسرحية يمكنه أن يقوم فيها بالدور الأول!

"إنك على جانب عظيم من البله والغباء!" إن لوسيبيا لعلى حق فيما تقول، وإن يستنيوس لأبله غبي!

أدرك الرجل ذلك، وأقر زوجته على رأيها، وبدل أن يعمل لحساب تيودات، كما أراد منه أمانتيوس الوزير الأول، راح ينشر الدعوة لنفسه، ويغترف المال من الخزائن ملء يديه وينفقه؛ لاستمالة عظماء المملكة وصعاليكها على السواء، وما دام عرش بيزنطة يباع بالمزاد، وما دام المال في النهاية هو العامل الفاصل في رجحان كفة الميزان إلى ناحية هذا أو ذلك من المتنافسين المتزاحمين، فإنه لمن البله والغباء حقًّا أن يشتري يستنيوس الضمائر والأصوات لحساب غيره لا لحسابه هو!

لم ينم يستنيوس في تلك الليلة، بل خرج من بيته ثانية ومعه زوجته.

وما طلع الصباح حتى كان كل شيء قد تم أو أوشك أن يتم، لا على حسب رغبة أمانتيوس الوزير الأول، بل على حسب رغبة يستنيوس قائد الحرس، وزوجته لوسيبيا!

وفي التاسع من شهر يوليو سنة ٥٤٨ لفظ انستايوس الأول أنفاسه الأخيرة، وهو في الثامنة والثمانين من العمر.

وفي اليوم التالي، خرجت كتائب الحرس الإمبراطوري إلى شوارع العاصمة الكبرى، وتدفق الشعب على الميادين من كل صوب، وما انتصف النهار حتى كان يستنيوس الأول محمولًا على الأعناق، وجالسًا على عرش القياصرة!

وكان في السادسة والستين من العمر، وشاركته الزوجة الوفية في الملك، وظلت بجانبه الصديقة الأمينة والمرشدة المخلصة.

وفي مساء ذلك اليوم، وضع الإمبراطور يستنيوس الأول خطة العمل بالاشتراك مع الإمبراطورة لوسيبيا.

سألها قائلًا:

- ما اقتراحاتك أيتها الحبيبة العزيزة؟

فأملت عليه المرأة ما يلي:

- يجب أولًا أن أختار لنفسي اسمًا غير هذا الاسم: لوسيبيا!.
- إن الشعب سيختار الاسم الجديد!
- ويجب أن تقتل الوزير الأول أمانتيوس قبل أن يتآمر عليك ويشتري العرش لسواك!
- سيقتل أمانتيوس!
- ويجب أن تختار أحد أقاربك وليًّا للعرش، ووارثًا لك بعد موتك، لأن الله لم يمنن عليك بأبناء.
- سأختار ابن أخي يستفيانوس!
- ويجب أن تبحث حواليك عن كل من يمكن أن تحدثه نفسه بالتآمر للتخلص منه قبل أن يتخلص منه.
- سأفعل.
- ويجب أن تسعى لإرضاء الشعب ورفع مستوى معيشته، وتحسين أحواله، فالشعب هو في الواقع عماد العروش، إذا رضي أبقاها، وإذا غضب دكها.

– سأكون عند حسن ظن الشعب!

وبعد أيام طلب يستنيوس من الشعب أن يختار للإمبراطورة اسمًا جديدًا؛ فسماها الناس "أفاميا".

وأمر الإمبراطور بخنق الوزير الأول أمانتيوس فخنق.

وجمع رجال الدولة، وطلب منهم أن يوافوه بكل ما يعبر عنه أبناء الشعب من الأماني والمطالب، لينفذها في الحال، وهكذا كان.

وتبقى ابن أخيه "يستنيانوس" وأعده ليكون إمبراطور من بعده، وكان يستنيانوس قد تزوج أيضًا خليلته، كما فعل عمه من قبل، واسم تلك الخليلة "تيودورا" وهي التي قامت في تاريخ بيزنطة بدور لم تقم به إمبراطورة أخرى، أما زوجها يستنيانوس، فقد كان بعد قسطنطين منشئ الإمبراطورية الرومانية الشرقية، أشهر قياصرة بيزنطة.

ومن أغرب ما حدث بعد ارتقاء "أفاميا" العرش مع زوجها، أنها أرادت أن تحول دون زواج يستنيانوس بخليلته تيودورا، مدعية أن في ذلك ما يسيء إلى سمعة الإمبراطور القادم، ويحط من قدره، ناسية أو متناسية أنها هي لم تكن غير جارية مجهولة الأصل، وخليلة لجندي أصبح فيما بعد إمبراطور، وإن "أناميا" اليوم هي (لوسيبيا) الأمس!

ولو لم قمت أناميا في سنة ٥٢٣. أي قبل وفاة زوجها ببضعة أعوام ما أصبحت تبودورا زوجة لبستنيانوس. وما اعتلت العرش معه بعد موت يستينوس. ولتغير بسبب ذلك مجرى التاريخ في الشرق والغرب!

وهذا ما جعل تيودورا، الراقصة التي طمعت في العرش ونالته، تقول لحبيبها بستنيانوس يوم أعلن خبر وفاة الإمبراطورة الجارية أناميا "حقًّا، إن عزرائيل يعرف أحيانًا كيف يختار الوقت المناسب للقبض على الأرواح!".

أما يستينوس الأول، فقد جلس على عرش القياصرة من سنة ٥١٨ إلى سنة ٥٢٧، وكان عهده مقدمة لعهد أسرة البستانيين الذين رفعوا بيزنطة إلى أوجِ العظمة والمجد.

توبة الإمبراطورة

الأعمال الصالحة تمحو السيئات. فهل محيت سيئات تيودورا بعد أن شيدت في بيزنطة؟

دخلت الوصيفة على الإمبراطورة "تيودورا" وانحنت إلى الأرض، ثم تقدمت وهمست في أذن مولاتها هذا الاسم: "ميخائيل!" فرفعت تيودورا رأسها، وسألت:

– الكبير أم الصغير؟

فأجابت الوصيفة:

– الكبير يا مولاتي .. ويبدو عليه القلق والاضطراب.

– ليدخل.

خرجت الوصيفة فنهضت تيودورا من مكانها، وقادت الفهد الأليف الذي كان نائمًا على قدميها إلى حجرة مجاورة، ثم عادت إلى الوسائد الملقاة أمام النافذة المطلة على البحر، واستبقت عليها.

ودخل في تلك اللحظة شاب في الثلاثين من العمر، طويل القامة، أزرق العينين، أشقر الشعر.

جثا "ميخائيل" على ركبتيه ووضع قبلة حارة على اليد التي بسطتها له الإمبراطورة.

لكنها ما لبثت أن فتحت له ذراعيها، فألقى بنفسه في أحضانها، وغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات الملتهبة.

ثم أجهش فجأة بالبكاء، وقال:

- أممكن هذا..؟ أصحيح أنك تعرضين عني، وترغبين إلي في أن أبتعد عن هذا القصر ولا أعود إليه بعد الآن؟ ماذا طرأ على حبنا؟ وأي عاطفة حلت في قلبك محل ذلك الغرام؟

فأخذت تيودورا رأس الشاب بين يديها، وقالت:

- ميخائيل، أصغ إلي: لقد أحببتك، ولا أزال أحبك يا حبيبي! لكن في الحياة ظروفًا وحالات ينبغي للإنسان أن يحترمها ويحسب لها حسابًا، لقد أحببتك قبل أن أدخل هذا القصر، وأعتلي عرش بيزنطة، وأصبح إمبراطورة وزوجة إمبراطور! وحافظت على ذلك الحب فيما بعد، ومهدت لك السبل لكي تأتي خلسة إلى مخدعي الإمبراطوري، وتقضي معي الأيام والليالي، إلى أن حدث حادث قد تكون عاقبته وخيمة علينا.

- أي حادث هذا؟

- جاءني أخوك منذ أيام، وطلب المثول بين يدي، فأذنت له بذلك ظنًّا مني أن القادم هو أنت بنفسك، لأن أخاك يدعى مثلك ميخائيل.

- وماذا كان يطلب؟

- جاءني يعرض علي حبه مثلك أيضًا؟
- الخائن! وماذا قلت له؟
- طردته من القصر طردًا، فخرج من عندي غاضبًا مهددًا قائلًا: إنه سيشيع في المدينة خبر علاقاتنا الغرامية، ويطلع عليها الإمبراطور قبل الرعية!
- يا له من مجنون أعمى!
- فبعد هذا الحادث، ينبغي أن تنقطع عن المجيء إلى هذا القصر، إلا إذا... إذا...
- إذا..
- إلا إذا عدل أخوك عن عزمه، أو زال من عالم الوجود!
- سأقتله الليلة!

وغادر "ميخائل الكبير" كما سمته تيودورا، حجرة الإمبراطورة العاشقة، وهو يردد قائلًا: "سأقتله الليلة!".

بدأت تيودورا حياتها راقصة في ملعب، وهي ابنة "اكاسيوس" مروض الوحوش، أما أمها فإن اسمها مجهول، وسيظل إلى الأبد مجهولًا.

مات أبوها وهي صبية، فضاقت الدنيا في وجهها، وبحثت عن الرزق، وسعت إليه في مختلف الأنحاء وبشتى الأساليب، فكانت تلتقطه حيثما تجده، في القصور والأكواخ والشوارع والحانات والمواخير.

أما الحب فإنها لم تعرفه، ولم تدع له سبيلًا للتسلط على قلبها. بل كانت تتاجر بمحاسنها وجمالها، كما يتاجر البائع بالسلع، فيعطيها من يدفع أكثر من سواه!

ورزقت ابنة جميلة كأمها، فخشيت تيودورا على الطفلة في ذلك الوسط الموبوء الذي كانت تعيش فيه، فابتعدت عن الملاهي والملاعب ودور التمثيل والرقص، وجعلت منذ الوقت تشتغل في صنع الأحذية والأزياء النسائية.

وترددت على بيتها نساء الطبقة الثرية في بيزنطة، ووقع عليها ذات يوم نظر الأمير يستنيانوس، ولي عهد الإمبراطورية الشرقية.

فأحبها، وهام بها، ونسي من أجلها ما عداها من النساء، وهجر الفتاة التي كان أبوه قد أعدها زوجة له، وأراد أن يتزوج تلك البائعة، تيودورا الجميلة.

لكن ماضي المرأة، وسيرتها، والمهنة التي كانت تحترفها، والاسم الملطخ بالعار الذي تحمله، كل ذلك حال دون رغبة الأمير وأمنيته، لأن قوانين الدولة تحرم على أمراء البيت المالك أن يختاروا زوجاتهم من غير البيئة التي ينتمون إليها.

لكن يستنيانوس لم يكن من أولئك الرجال الذين تتولاهم الحيرة في مثل هذه الظروف.

سن قوانين جديدة محل القوانين القديمة، وأجاز للأمراء أن يتزوجوا من يشاءون من النساء، حتى لو كن من الممثلات أو الراقصات أو البغيات!

وما جلس يستنيانوس على عرش بيزنطة إلا وتيودورا بجانبه، وعلى رأسها تاج الإمبراطورية!

ظلت "الإمبراطورة" تحن إلى حياة الراقصة، وظلت تيودورا زوجة يستنيانوس الإمبراطور تذكر بالحسرة والألم تلك الحرية التي كانت تتمتع بها تيودورا الغانية، فقامت في نفسها، وهي جالسة على العرش، رغبة شديدة في العودة إلى سيرتها الأولى، إلى التهتك، إلى إشباع ميولها، والتمرغ في أحضان الحب المحرم كسابق عهدها به.

فأرسلت في طلب عشاقها الأقدمين، الواحد بعد الآخر، وأدخلتهم خلسة إلى قصرها، فتحول مخدع الإمبراطورة إلى مفسق يلتقي فيها طلاب الهوى، وعشاق الجمال، ورواد الملاذ!

وكان "ميخائيل" أحد أولئك المغرمين المعجبين بتيودورا، ومن أسعدهم حظًّا لديها، وكان أخوه الصغير أيضًا من المترددين على القصر. لكن الإمبراطورة كانت تحذر كلًّا من الاثنين أن يذكر للآخر شيئًا عن علاقاته بها.

وحدث ذات يوم أن علم الأخ الصغير أن أخاه الكبير يتمتع لدى الإمبراطورة المتهتكة بحظوة أوسع من حظوته، فجاءها مرغى مزبدًا، وهددها بإفشاء سرها إذا لم تطرد أخاه، وتقفل في وجهه أبوابها.

فخشيت تيودورا سوء العاقبة، على أثر ذلك الحادث، وراحت تغري الأخ وتحرضه على أخيه، لكي ينقذها منه ويحول دون الفضيحة في البلاط.

وبعد يومين كانت تيودورا جالسة مع فهدها الأليف، أمام تلك النافذة التي كانت تحب الجلوس أمامها، وإذا بالوصيفة، المطلعة على جميع أسرارها، تدخل عليها، وتهمس في أذنها مرة أخرى ذلك الاسم: "ميخائيل!".

ضحكت الإمبراطورة في هذه المرة، وقالت:

– الكبير؟ إنني في انتظاره، ليدخل!

فدخل العاشق، كالح الوجه، مقطب الجبين، وقال:

– قضي الأمر، والأسماك تلتهم جثته منذ الأمس!

فنهضت تيودورا من مكانها، واقتربت من العاشق القاتل، وأمسكت بيديه، وحدقت فيه البصر، وقالت:

– أقتلته؟ حقًّا؟

– نعم، وألقيت جثته في البحر!

فطوقت تيودورا عنقه بذراعيها، وبينما الاثنان مستلقيان على الوسائد الحريرية أمام النافذة المطلة على البحر، يتداعبان ويتحادثان، حانت من المرأة التفاتة نحو يد حبيبها، فخيل إليها أن لطخة حمراء لا تزال باقية على كفه!

فنظرت إلى اليد الأخرى، وإلى وجهه، وإلى عنقه، فخيل إليها أيضًا أن بقعًا حمراء تلطخ اليد والوجه والعنق، وأن الدم الذي سفكه هذا القتل – دم أخيه البريء – لا تزال آثاره باقية، مطبوعة، تشهد على المجرم الأثيم، وتتهم من حرضه على القتل!

كانت تيودورا قد ارتكبت قبل ذلك اليوم جرائم كثيرة، وانغمست في الدماء والملاذ المنكرة! ولكنها لم تشعر مرة واحدة بأن هناك ضميرًا! يؤنب المذنب على ذنبه!

أما اليوم فإن ضميرها قد صحا من سباته، وهي تشعر وتحس بوخزه المؤلم!

فاستعرضت أمامها ذلك الماضي المثقل بالآثام والمنكرات والخيانات، وهالها من أقدمت عليه في حياتها من أعمال مخزية معيبة، وسمعت صوتًا داخليًّا يهيب بها:

- كفى شرورًا أيتها المرأة الدموية الفاجرة! لقد آن الأوان للتوبة؛ فكفري عن ذنوبك وآثامك إن الله يغفر للتائبين!

ظل العمال يشتغلون ستة شهور كاملة في بناء تلك الدار الواسعة الأرجاء، القائمة على ضفاف البوسفور، التي أعدتها الإمبراطورة تيودورا ملجأ لخمسمائة من النساء الساقطات، اللواتي حملتهن على التوبة والندم، فعدلن عن سلوكهن الشائن، ومفاسدهن السابقة، وأقمن في تلك الدار، في رعاية الإمبراطورة والإمبراطور.

نبذت تيودورا ماضيها، بعد ذلك الحادث المشئوم، الذي راح فيه أخ شهيد الحب الأثيم، قتيلًا بيد أخيه، ولم يكفها ذلك، بل جعلت تدعو البغيات والممثلات والراقصات إلى نهج منهجها، وسلوك السبيل السوي الذي سلكته.

وكان "ميخائيل" القاتل ساعدها الأيمن ورفيقها في ذلك الجهاد المشكور، بعد أن تاب مثلها، وعزم من جهته على أن يكفر عن سيئاته الماضية.

وبعد أن شيدت تيودورا تلك الدار الفخمة، على ضفاف البوسفور وجمعت فيها خمسمائة من الممثلات والراقصات والنسوة المتهتكات، أقامت صديقها "ميخائيل" مراقبًا على الدار. من قبلها ومن قبل الإمبراطور يستينيانوس زوجها.

وذهبت إلى أبعد من ذلك، فجعلت تبحث لأولئك النسوة التائبات عن أزواج بين خدم القصر وجنود الحراس، وترغم كل من أراد الزواج من اتباعها على اختيار رفيقة حياته من ساكنات "دار التوبة" كما كانت تسميها!

وقد جلس الإمبراطور يستينيانوس على عرش بيزنطة ثمانية وثلاثين عامًا، من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ للميلاد، وكان في خلالها من الملوك المنصفين العادلين.

لكنه ظل جاهلًا ذلك الحادث الذي حمل زوجته على تشييد تلك الدار — دار التوبة — كما ظل جاهلًا لكثير من الأسرار التي تضمها جدران قصره.

وبعد موت تيودورا، بكاها "ميخائيل" صديقها ورفيقها في جميع أطوار حياتها، وأفشى ذلك السر الرهيب، وقص على الناس قصته، ومقتل أخيه، وتوبة الإمبراطورة!

الشيطان في الدير

زجر الشاب الإمبراطورة وأعرض عنها، فادعت أن الشيطان قد حل فيه، وصدقها الناس!

مات يستينيانوس الأول، إمبراطور الشرق، في سنة ٥٦٥، تاركًا ذكرى طيبة وآثارًا باقية، بعد أن حكم الإمبراطورية البيزنطية ثماني وثلاثين سنة، وشاركته في الحكم زوجته تيودورا، التي اقترن اسمها باسمه، ودون بجانبه في صفحات التاريخ، فقد قامت تلك المرأة النابغة بدور كبير في مبادئ السياسة والحرب والحب، وماتت قبل زوجها بدون أن تترك وريثًا للعرش.

وتبنى يستينيانوس الأول ابن أخيه يستينوس، وجعله ولي عهده، كما كان عمه، الإمبراطور بستينوس الأول، قد اختاره من قبل وليًّا لعهده، ووارثًا لعرشه.

وكان بستينوس الثاني، يوم خلف عمه يستينيانوس، قد تدرب على إدارة شئون الدولة، وأعد عدته للاضطلاع بمسئولياته، وقد قابل الشعب ارتقاءه العرش بالرضا والارتياح، وخيل إلى الناس أن عهده سيكون امتداد لعهد سلفه العظيم.

وكانت زوجته "صوفيا" ذات سلطان عليه، كما كانت من قبل الإمبراطورة تيودورا ذات سلطان على زوجها يستينيانوس. كان الأقدار أبت إلا أن تكون الإمبراطورية الرومية – أو الرومانية الشرقية – في تلك الحقبة

من تاريخها، خاضعة لإرادة النساء دون إرادة الرجال، أو لإرادة الرجال والنساء في آن واحد.

كانت صوفيا من النساء اللواتي أولعن بالحب العنيف والغرام الفاسد، فبحثت عن عشاق بين الأشراف والصعاليك، والكهول والشباب فأعادت إلى بيزنطة، من هذه الناحية، عهد تيودورا، ابنة مروض الوحوش التي رفعها جمالها إلى سرير الملك.

أحبت صوفيا من الرجال أشكالًا وألوانًا، واختارت عشاقًا من جميع الأجناس والمذاهب.

ولم يقف في وجه الإمبراطورة المتعطشة إلى الغارم، الباحثة في كل مكان عن الرجال، غير رجل واحد، أو بالأحرى فني واحد، زجر المرأة ولم يؤثر فيه إغواؤها، وبلغ به الأمر إلى ضربها بعصاه ضربة مؤلمة على كتفها، كتمت الإمبراطورة خبرها، لا خوفًا من الشاب الذي لم يكن له حول ولا طول، وإنما للخزي من العار والفضيحة!

ذلك الفتى هو تيوفيلوس الرومي، الجميل الطلعة، المفتول الساعدين، الساحر العينين!

جاء به الإمبراطور يستنيوس من قرية نائية، حيث كان الشاب يرعى الماشية ويروض الخيول ويصارع الثيران، وجعله جنديًّا ثم ضابطًا في حرسه، غير أن الشاب ظل محتفظًا بخلقه الريفي، وطبعه الشرس، وظل عائشًا بين الناس كما كان عائشًا من قبل بين الحيوانات.

رأته الإمبراطورة وهي تطوف في ثكنات الجند، في إحدى الليالي الشتاء

الباردة، وكان الشاب عاري الذراعين والصدر والظهر، يداعب فرسًا جامحة ويحاول إخضاعها، والعرق يتصبب من جبينه.

راق الإمبراطورة منظر ذلك الفتى القوي الشجاع، الذي لا يؤثر فيه البرد، والذي لا يحتاج لاتقائه إلى الأصواف والفراء!

وحاولت المرأة أن تغري الرجل وتستهويه، لكن تيوفيلوس لم يؤخذ بحبائلها، ولم يدع لسهام عينيها منفذًا إلى صدره، فحنقت عليه الإمبراطورة العاشقة العاتية، وأضمرت له الشر، وبيتت له الانتقام!

ساعدت الأقدار يستينوس الثاني في بادئ الأمر، وأعانته الظروف والأحوال، فانتصر على أعدائه الكثيرين، ورد القبائل عن تخوم مملكته الشاسعة، وأعاد إلى شعبه الطمأنينة، ولكن المجهود العظيم الذي بذله الإمبراطور في صيانة ملكه، وتنظيم شئونه، أدى به إلى خطر لم يكن في الحسبان.

أقدم الإمبراطور في سنة ٥٧٣ على أعمال تنم عن اضطراب عقلي ظاهر، فعهدت الإمبراطورة صوفيا إلى أشهر أطباء المملكة في فحصه، واتضح لهم أن يستنيوس مشرف على فقدان العقل!

وفي سنة ٥٧٤ ثبت لدى الإمبراطورة، ولدى الأطباء وعظماء المملكة، أن المسكين مصاب بالجنون، وأنه لابد من اختيار أشخاص يتولون الحكم بجانبه.

وفي انتظار ذلك، جعلت الإمبراطورة تصدر الأوامر إلى أتباعها باسم زوجها، بعد موافقة الإمبراطور المعتوه عليها، وكان أول أمر أصدرته صوفيا،

موقعًا عليه باسمها، ممهورًا بختم الإمبراطور يستنيوس أمرًا بنفي تيوفيلوس، الضابط في الحرس، إلى دير جبل سيناء، بحجة أن الرجل به مس من الجنون، وأن شيطانًا رجيمًا قد اتخذ من جسمه مقرًّا له!

تهمة باطلة كانت عقلية القوم في ذلك الوقت تميل إلى تصديقها، وقد ساعدت طباع الرجل الشرسة على إثبات التهمة، وإصدار الأمر بالنفي.

وأرسل تيوفيلوس الرومي، الذي احتقر الإمبراطورة وزجرها، ورفض ما عرضته عليه من غرام أثيم، إلى دير طور سيناء الذي يحمل اسم القديسة كاترينا للإقامة فيه بين الرهبان والنساء، إلى أن يطرد الشيطان منه، وتغادره الروح الشريرة!

عبثًا حاول الرجل أن يدافع عن نفسه، وأن يثبت أن ليس الشيطان علاقة به، وأخيرًا ثار ثائره، فأهوى بعصاه مرة أخرى على الإمبراطورة صوفيا، أمام وزير الإمبراطورة "تيبيروس"، فاتخذ عمله هذا برهانًا جديدًا على حلول الشيطان فيه.

ولكن تيوفيلوس لم يلبث أن أصيب بالجنون، على أثر وصوله إلى الدير وحبسه فيه، فخرج ذات يوم من الحجرة التي كان مسجونًا فيها، بعد أن كسر قيوده وتخلص منها، وصعد إلى أعلى الأسوار وألقى بنفسه إلى الخارج، فسقط على الأرض جثة مهشمة هامدة!

ولم يدفن تيوفيلوس أو "الشيطان" كما كان يسميه سكان الدير في المقبرة التي يرقد فيها الرهبان والنساء رقادهم الأخير، بل نقلت جثته إلى سفح الجبل، ودفنت في حفرة بين الصخور، حيث تبني النسور وكناتها، ولم يقل

أحد من الرهبان أن يتلو على قبر "الشيطان" صلاة الأموات، لأن الله لا يقبل نفس من اتخذه إبليس مقرًّا له!

ولو حفرت بين الصخور، في الناحية الشرقية، لعثرت على عظام "الشيطان" تيوفيلوس، الذي راح ضحية الظلم والاستبداد، والذي اعتقد الناس أن روحه قد ولت إلى الجحيم مقر الشياطين، على حين اعتقدوا أيضًا أن روح الإمبراطورة صوفيا الفاجرة، تقيم في جنة الخلد بين الملائكة والأبرار والقديسين!

عاش يستينوس الثاني مجنونًا أربعة أعوام أخرى، ومات في سنة ٥٧٨..

أما عمه يستينيانوس الأول زوج تيودورا، فهو الذي شمل بعطفه وحمايته النساك المترهبين في جبل سيناء، فشيد لهم على نفقته كنيسة أحاطها بسور مرتفع، فكانت نواة الدير الذي بناه الرهبان والجنود في ذلك الموضع فيما بعد، وجعلوه مقرًّا لهم.

وهو الذي أرسل إليه تبوفيلوس بأمر من الإمبراطورة صوفيا.

اللسان المقطوع

هل انتقمت السماء من الإمبراطور لأنه خالف القوانين والشرائع والعقائد؟

ولدتا في وقت واحد: الأولى لأب وأم روميين، والأخرى لأب مصري وأم سورية، وكأن الأقدار شاعت بذلك أن تربط حياة "مارتينا" بحياة ماريا منذ اليوم الأول الذي رأتا فيه النور.

كانت أم مارتينا تدعى أيضًا "ماريا" وهي ابنة القائد البيزنطي البارع هراكليوس، حاكم الأقاليم الإفريقية باسم الإمبراطورية البيزنطية، وصاحب المشروعات العمرانية الموفقة في مدينة قرطاجة مقره الرسمي.

وكان لماريا ابنته صديقة سورية هي زوجة التاجر المصري "باخوم" أشهر موردي المواد الغذائية للجيوش الرومية في مصر وسورية وإفريقيا، وتلك الصداقة التي كانت تجمع بين المرأتين الشابتين، جعلت السورية زوجة المصري تسمي ابنتها "ماريا" باسم صديقتها ابنة الحاكم الرومي.

واسم "ماريا" من الأسماء المحبوبة من المصريين والروم معًا، في عصر كانت فيه مصر جزءًا من الإمبراطورية الرومية الشرقية، ومعقلًا من معاقل المسيحية في العالم.

ولم تكن ماريا أم مارتينا قادرة على تغذية طفلتها الرضيعة بلبنها الشحيح، فعهدت بذلك إلى صديقتها، وهكذا رضعت الطفلتان مارتينا

الرومية وماريا المصرية من ثدي واحد، فغذتهما الأم السورية بلبنها المتدفق غزيرًا من صدر عامر بالصحة والعافية!

وكان لماريا أم مارتينا أخ مغامر يدعى أيضًا "هراكليوس" مثل أبيه، شب ونشأ قويًّا مقدامًا متطلعًا إلى المجد والعلا، وساعدته الظروف الصعبة، والأوقات الحرجة والأزمات المتوالية التي مرت بها الإمبراطورية في ذلك العهد، على أن يشق لنفسه طريقًا إلى الأهداف البعيدة، التي كان يحلم بالوصول إليها.

كان أعداء الإمبراطورية والطامعون فيها يواصلون مهاجمتها من الشرق ومن الغرب ومن الشمال، الفرس في آسيا، والبرابرة في جبال البلقان وما وراءها من سهول. وكان الخطر الداهم يشتد ويتفاقم يومًا بعد يوم، وأعين الناس تتطلع في كل ناحية وصوب، باحثة عن المنقذ الذي تبعثه العناية الإلهية لكل وطن مهدد بالهلاك، إذا كان الله راضيًا عنه!

وطلع المنقذ على الشعب في الوقت المناسب وقبل أن تفوت الفرصة.

ذلك المنقذ هو هراكليوس، القائد المغوار، ابن القائد المغوار، الوطني المخلص ابن الوطني المخلص، تولى الزحف بجيشه على الحدود المهددة، وكان النصر حليفه في كل معركة خاض غمارها، وفي كل حملة شنها على أعداء بلاده، فعرف الشعب قدره، وكافأه بأن رفعه إلى سدة العرش في بيزنطة، بعد أن تتابعت المآسي في داخل الأسرة المالكة، فأنشأ هراكليوس الأول أسرة جديدة كان هو رأسها.

والأقدار التي غمرته بعطفها أرادت أيضًا أن يكون ملكه طويلًا، مفعمًا

بالحوادث الجسام، مملوءًا بالفاخر، وأن يمتزج ذلك كله في النهاية بسلسلة من المآسي الدامية والفواجع الرهيبة.

في سنة ٦١٣ للميلاد، ماتت "أودوكيا" زوجة الإمبراطور، وكان يحبها حبًّا جمًّا، ويعتقد أنها جلبت له الحظ والخير العميم، فحزن عليها حزنًا شديدًا، وحبس نفسه في قصره بضعة أسابيع، ورفض أن يستقبل أصدقاءه والمقربين إليه، وظن الناس أن العاهل القوي الجبار أوشك أن يفقد عقله — إن لم يكن قد أصيب بالجنون فعلًا يوم ماتت الإمبراطورة.

لكن مارتينا، ابنة أخته ماريا، تمكنت من اقتحام الحصار الذي فرضه الإمبراطور على نفسه، ودخلت عليه في عزلته، ووقفت جهدها على مواساته وتعزيته، وإعادة الثقة إلى نفسه.

وأقنعته بأن يسمح أيضًا لصديقتها ماريا بأن تعاونها في العناية به، وهكذا عاشت الفتاتان اليانعتان مع الإمبراطور في عزلة قصره الواسع، طول المدة التي حبس نفسه خلالها بعيدًا عن الناس.

كانت مارتينا وصديقتها في الثالثة والعشرين من العمر، وفي صدر كل من الفتاتين قلب مفعم بالعواطف، متعطش إلى مناجاة قلب، متعطش مثله إلى كل ما تختلج به قلوب الفتيات في تلك السن الحلوة الخطرة!

أما الإمبراطور هراكليوس، الذي ترمل بوفاة زوجته، فكان في الثامنة والثلاثين، ولم يكن قلبه قد فرغ بعد مما انطوى عليه من مشاعر.

فلا غرابة في أن يحدث تجاوب بين قلبين، في مثل هذه الظروف: وهذا ما حدث بقلبي الإمبراطور الأرمل، وابنة أخيه الصبية مارتينا.

في خلوة بينها وبين صديقتها، ورفيقتها منذ عهد الطفولة والأخت التي رضعت معها من ثدي واحد، قالت مارتينا لماريا:

- أيتها الأخت المحبوبة: أظن أننا في الطريق إلى تحقيق مرحلة أخرى من مراحل الحلم الطويل الذي رويته لي ونحن على عتبة الشباب.

وانتفضت ماريا لهذا الذي قالته لها مارتينا، وسألت بلهفة:

- أتعتقدين أن الإمبراطور، وقد خلا بجانبه مكان الإمبراطورة، سيأخذ بيدك ويجلسك في المكان الخالي.

وردت مارتينا بلا تردد:

- نعم، هذا ما أعتقد!

وهذا فعلًا ما كانت تعتقده الفتاة الجميلة الساحرة، وهو في نظرها أمر طبيعي، يجيء متممًا لغيره من الحوادث التي وقعت من قبل، والتي تحققت بها مراحل الحلك الذي أشارت إليه الفتاة.

الحلم الذي رأته ماريا وهي في الثامنة عشرة من العمر، ولم يكن بعد هراكليوس قد اعتلى العرش في بيزنطة.

رأت الصبية المصرية نفسها تسير في الطريق جنبًا إلى جنب مع صديقتها وابنة سميتها مارتينا، وقد طوقت كل منهما خصر الأخرى بذراعيها، واتجهت الفتاتان إلى منصة بعيدة يعلوها مقعد أرجواني عليه تاج مذهب.

وسمعت الفتاة صوتًا يهمس في أذنها:

"حياتك وحياة أختك في الرضاعة حياة واحدة"

"تموت أمك يوم تموت أمها"

"يموت أبوك يوم يموت أبوها"

"تذهبين إلى بيزنطة يوم تذهب هي إليها"

"تعيشين في ظل عرش تعيش هي في ظله".

"تمرحين في قصر تمرح هي فيه".

"تجلسين على سلم العرش يوم تمثيله هي".

"ستكون هي زوجة الإمبراطور، وتكونين أنت زوجة لقائد من قواده".

"تسقطين يوم تسقط هي".

"تموتين قبلها بخمسة أيام!"

وقطعت الفتاتان مراحل الحياة من سن الثالثة عشرة إلى سن الثالثة والعشرين.

وتحققت من الحلم الغريب حلقاته الأولى.

ذهبت الصديقتان معًا إلى بيزنطة، ومات أبواهما كما جاء في الحلم، وارتقى هراكليوس، خال مارتينا، عرش القياصرة في القسطنطينية، فعاشت الفتاة في ظل العرش، وعاشت معها في ظله أختها في الرضاعة، ومرحت الفتاتان في القصر المترامي الأطراف، والذي هو في الواقع مجموعة قصور داخل أسوار شاهقة، ما راق لهما أن يمرحا.

عرفتا معًا، وفي وقت واحد، ما ينفع وما يضر، ما يحزن وما يسر!

كان هراكليوس يرعى بعناية ابنة أخيه، فتتمثل العناية الملكية أيضًا صديقتها ورفيقتها ماريا.

وكانت الفتاتان من وقت إلى آخر تذكران الحلم الرائع، وتتحدثان عنه، وتضحكان لغرابة ما جاء فيه.

ولكنهما لم تسدلا عليه بستار النسيان، بل ظلت كل منهما تدعه يداعب مخيلتها في الليالي المتتابعة، وتعلل النفس بأن ترى تحقيق ما قاله الصوت الهامس في أذن ماريا بتلك الحداث الحلوة العظيمة.

وكانت ماريا أكثر الفتاتين تساؤلًا بينها وبين نفسها، عن إمكان تحقيق الحلم برمته، وكانت أيضًا أبعد من رفيقتها أملًا بأن تتحول مراحل الحلم كلها إلى وقائع ملموسة.

إلى أن طلع فجر ذلك اليوم الذي قالت فيه أختها في الرضاعة:

- أيتها الأخت المحبوبة: أظن أننا في الطريق إلى تحقيق مرحلة أخرى من مراحل الحلم الطويل الذي رويته لي ونحن على عتبة الشباب!

وكشفت مارتينا لماريا عن مكنون صدرها، وعما دار بينها وبين خالها الإمبراطور من حديث، في الليلة السابقة لذلك اليوم النير.

كاشف الخال ابنة أخيه بغرامه.

قال لها: إنه يحبها حب الرجل للمرأة، لا حب المربي لربيبته، وأنه يفضي إليها بعاطفته هذه بصراحة، وبدون مواربة، ويعرض عليها أن تحل بجانبه، في حياته، وعلى عرش الإمبراطورية، محل زوجته الراحلة أودوكيا.

وقالت مارتينا أيضًا لماريا أنها ردت على خالها بأن عاطفته تجد صدى في صدرها، وأنها تقابل حبه بمثله، ولا تمانع في أن تشاركه في حياته كزوج وإمبراطور.

وطوقت ماريا عنق صديقتها بذراعيها، وانهالت عليها بالقبلات، ودموع الفرح تنهمر من مقلتيها.

لكن مارتينا استطردت تقول:

– وفي اللحظات التي كنت أتبادل ذلك الحديث الرطب المنعش مع خالي الإمبراطور، لم يغرب عن بالي، أيتها الأخت الحبيبة، أن الحلم الذي رأيته يقضي بأن تتزوجي أنت قائدًا من قواد الجيش، يوم أصبح أنا زوجة لقيصر!

فسألت ماريا ضاحكة وقد احمرت وجنتاها:

– وهل وجدت لي، أو وجد لي الإمبراطور زوجًا بين قواد جيشه؟

وأجابت مارتينا على الفور:

– نعم، القائد نيقولا ليزياس، الشاب الذي ينتظره في سلك الجندية مستقبل عظيم!

شاع خبر عزم الإمبراطور هراكليوس على اتخاذ ابنة أخته مارتينا زوجة له، فقامت قيامة رجال الدين، وعلى رأسهم البطريرك سرجيوس المتمسك بالتقاليد والساهر على تطبيق الشريعة المسيحية الأرثوذكسية، في مقر الكنيسة الشرقية، بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الرومية

إن زواج الرجل بابنة أخيه أو ابنة أخته، وزواج المرأة بابن أخيها أو بابن أختها، أمر تحرمه القوانين الكنسية، ويخالف التقاليد المرعية، والعادات المتوارثة عند المسيحيين منذ أن بشر الرسول بولس بالدين الجديد، في البلاد اليونانية.

ولا يسع البطريرك، ومعه رجال الدين كلهم، كبارهم وصغارهم، إلا أن يمانعوا في عقد هذا الزواج الذي يفكر فيه الإمبراطور.

ولكن هراكليوس صم أذنيه عن سماع النصائح، وضرب صفحًا عن المعارضة.

فصاح سرجيوس، لما اتضح له أن الجالس على العرش مصمم على أن يتحدى الكنيسة:

- إذن فلتفعل السماء ما يشاء لها معك أيها الخارج على شرائعها، وسوف يحل بك الانتقام، وهو رهيب!

وتم الزواج، وأصبحت مارتينا إمبراطورة تجلس مع هراكليوس على عرش بيزنطة، وأصبحت أختها في الرضاعة، ماريا المصرية، زوجة القائد ليزياس، أقرب الناس إلى صاحب العرش.

وهدأت الخواطر مع مرور الوقت، ونسي البطريرك أو تناسى ما تكهن به من انتقام سماوي، وظن هراكليوس وزوجته أن زواجهما لقي الغفران الرباني والبشري في آن واحد.

ولكن الحوادث تتابعت في مجرى غير الذي كان الإمبراطور يأمله ويتمناه.

حلت الكوارث بالإمبراطورية من أطرافها الشرقية والغربية، والشمالية والجنوبية، وتعاونت مارتينا مع زوجها المتوج في معالجة الاضطرابات، ودرء الأخطار، وإنقاذ الملك الواسع من الانهيار.

وكانت هي أشجع منه وأبعد تحملًا للمتاعب، وبلغ بها الإقدام أحيانًا حد التهور، فكانت تتولى تصريف شئون الدولة وحدها، على حين أن الإمبراطور، والرحيل قابع في حجرته، يستسلم لليأس ويفكر في النزول عن العرش والرحيل إلى قرطاجة، في أفريقيا، حيث نشأت أسرته وأحاطها الناس بالمحبة والتقدير.

ذهبت المرأة الشجاعة، مارتينا الإمبراطورة، إلى البطريرك العنيد، وأقنعته بأن يتصافى مع هراكليوس في سبيل الوطن، ولإنقاذ الدولة بإنقاذ قيصر من اليأس، وعمل سرجيوس بنصيحتها، وتصافح الخصمان، وعقدا العزم على بذل المستطاع كي لا تصاب الإمبراطورية بالانهيار.

غير أن الصلح بين الرجلين جاء بعد فوات الوقت، ولما انتهى الرجل هراكليوس، وفاضت روحه بين ذراعي زوجته، في سنة ٦٤١ وهو في السادسة والستين من العمر، كانت الشعوب المجاورة تدق أبواب الإمبراطورية من جميع الجهات، والبوادر تنذر بويلات قريبة.

طلب الإمبراطور من عظماء المملكة أن يتركوا زوجته من بعده تتولى الشئون العامة بالاشتراك مع ولديه: قسطنطين ابن الزوجة الأولى أودوكيا، وهراكليوس ابن الزوجة الثانية مارتينا.

ونفذت إرادة هراكليوس الأخيرة..

لكن قسطنطين مات بعد شهور من وفاة أبيه، وتهامس الناس بأن للإمبراطورة يدًا في وفاته المبكرة.

وانفردت مارتينا في الحكم، ولكن الاضطرابات عمت أنحاء الإمبراطورية، وما مرت سنة واحدة على وفاة هراكليوس، حتى كان قواد الجيش، وبينهم ليزياس زوج ماريا، قد تأمروا على الإمبراطورة الجريئة، وأرغموها على النزول عن العرش، وحكموا عليها بالمنفى إلى جزيرة نائية.

سقطت مارتينا من عليائها في سنة ٦٤٢، وسقطت معها أختها في الرضاعة، ماريا، التي طردها زوجها القائد المتآمر ليزياس، وأمر بأن ترافق مولاتها إلى المنفى.

وقبل أن ترسل مارتينا إلى السفينة التي حملتها إلى منفاها في عرض البحر، نفذ فيها الحكم الأخير الذي أصدره أبناء زوجها وأعوانهم المتآمرون، وهو أن يقطع لسانها كي لا تنبعث من فمها بعد ذلك اليوم الرهيب كلمة واحدة في حق الذين أساءوا إليها وطردوها من عرشها!

عاشت مارتينا ابنة ماريا وزوجة هراكليوس إحدى عشرة سنة بعد وفاة زوجها، حزينة، كئيبة، مقطوعة اللسان!

وعاشت معها في المنفى – راضية بمصيرها – أختها في الرضاعة، ماريا ابنة التاجر المصري باخوم من زوجته السورية.

وفي صباح يوم مكفهر قاتم، صحت الإمبراطورة المخلوعة من نومها، وقد انتابها عارض جنون فجائي.

وملأت غرفتها صياحًا، فأسرعت رفيقتها ماريا إليها تستطلع الخبر.

فوثبت مارتينا على أختها في الرضاعة، وقبضت على عنقها بأصابع أشد صلابة من قضبان الحديد، ولم تتركها إلا بعد أن أصبحت المسكينة جثة لا حياة فيها.

قتلت مارتينا المرأة التي بقيت وحدها محافظة على صداقتها، والتي ظلت وفية لها حتى النفس الأخير!

وبعد خمسة أيام – تمامًا كما جاء في الحلم الغريب – ماتت مارتينا مجنونة في جزيرتها النائية!

وكانت، مثل صديقتها، في الثانية والستين من العمر.

وقال الناس في القسطنطينية، المسماة بيزنطة، عاصمة الإمبراطورية الرومية: أن السماء انتقمت من هراكليوس ومارتينا، بسبب الزواج المخالف للشرائع الدينية، الذي أقدما عليه بالرغم من المعارضة والتحذير.

وحش على عرش

السلطة تعمي البصر والبصيرة أحيانا، فتحول الإنسان إلى وحش، أو إلى شيطان!

والشعوب تنتقم من الوحوش المتوجين، والشياطين الجالسين على عروش!

كان العرب يدقون أبواب الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عقر دارها، بعد أن استتب لهم الأمر في الأقاليم التي انتزعوها من أطرافها، وبعد أن أصبح بر مصر وبر الشام جزءًا من الدولة الناشئة.

ضربوا الحصار على القسطنطينية، أي بيزنطة، عاصمة الإمبراطورية، وأوشكوا أن يستولوا عليها في عهد معاوية بن أبي سفيان.

عجلة الحظ تدور، وميزان القوى يضطرب، وفي الأفق نجم يصعد، ونجوم تهوى.

تمكن قسطنطين الرابع من إنقاذ عاصمته، والاحتفاظ بعرشه، فإلى متي يتمكن القياصرة في المستقبل من صيانة العرش والعاصمة؟

هذا هو السؤال الذي كان يدور، على الألسنة يوهم بتولي الملك في بيزنطة، فتى في السادسة عشرة من العمر: فقد خلف يستينيانوس الثاني أباه قسطنطين الرابع في عام ٦٨٥ للميلاد، الموافق لسنة ٦٦ للهجرة، وكان عبد الملك بن مروان يتولى الملك والخلافة في دمشق عاصمة الأمويين.

كان الأمويون في ذلك الوقت يهادنون الروم ويرتبطون بالإمبراطورية بمعاهدة تفرض على الفريقين أن يقف كل منهما عند حده، ولكن الإمبراطور الشاب ما كاد يضع التاج على رأسه حتى نقض العهد وتجاهل الاتفاق، فزحف العرب من جديد على آسيا الصغرى وأضافوا إلى أملاكهم ما انتزعوه من مدنها وسهولها وجبالها.

في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الشرق الأدنى، نزحت أسر عدة من إقليم إلى إقليم، ومن مدينة إلى أخرى.

وكان الطبيب السوري "بولس السمري" وأفراد أسرته بين النازحين من حلب، فاستقر به المقام في قرية صغيرة على ضفاف البوسفور، حيث أقام مع زوجته وابنته وثلاثة شباب كانوا يعاونونه في تحضير العقاقير من الأعشاب، وهم أبناء أخيه.

كان ذلك في عهد قسطنطين الرابع البيزنطي، وعهد يزيد بن معوية الأموي.

ولما تولى الملك الفتى المغرور بستنيانوس كانت شهرة الطبيب السوري قد جاوزت نطاق بلدته، وبلغت القرى والمدن، وانتشرت في العاصمة الصاخبة، فتسربت إلى القصور الملكية ودور الأثرياء وأكواخ الفقراء.

كان الطبيب يعالج المرضى بمستحضراته النباتية، ويدعى من بلدته إلى مسافات بعيدة فلا يتردد ولا يتأخر في تلبية الدعوة مهما تكن الظروف والأحوال، وكان موفقًا في توفير الشفاء لمعظم الذين تولى علاجهم من أمراض أو جراح.

وارتبطت أسرة الطبيب السوري بروابط الصداقة والمصاهرة مع أسرة طبيب رومي تقيم في قلب العاصمة.

وكانت ابنة بولس السمري، الفتاة الصغيرة الجميلة "فوسينا" تتردد على منازل الأسرة الرومية من وقت إلى آخر، وتقضي فيها أيامًا أو أسابيع، وهناك وضعت الأقدار في طريقها الشاب الذي تبحث عنه مل امرأة في صباها، وذلك الشاب واحد من أبناء الأسرة الصديقة النسيبة، "ماركوس" الضابط في الحرس الإمبراطوري.

أمام ماركوس مستقبل باسم تدل البوادر على أنه سيكون باهرًا من جميع الوجوه، فهو – علاوة على ذكائه، وجماله، وبارعته في ضروب الفروسية، وشجاعته الفائقة – صديق حميم لواحد من أقارب أسرته يدعى "ايلياس" وكان ايلياس من ناحيته صديقًا حميميًّا للإمبراطور الشاب يستنيانوس ورفيقه وملازمه في روحاته وغدواته ومغامراته، ومؤتمن أسراره، وأحيانًا مستشاره في الشئون الخاصة بسياسة الدولة ومناهج الحكم.

كانت أسرة الطبيب الرومي تفخر بصداقة ايلياس لفتاها ماركوس.

وكانت أسرة الطبيب السوري تفخر أيضًا بأن تنضح عليها هذه الصداقة فيلحقها منها رشاش!

وكان ايلياس يتردد على الأسرتين، وتطول أو تقصر فترات غيابه على حسب الوقت الذي يتركه فيه الإمبراطور حرًّا، وينصرف كما يشاء.

كان يستنيانوس الثاني جلفًا عنيدًا، سيئ الطبع والخلق، بذيء اللسان، طويل اليد، متكبرًا يعتقد أن الله أرسله ليكون سيد البشر على الإطلاق،

دائم التعطش إلى سفك الدماء بسبب أو بدون سبب، شرهًا في كل شيء في الطعام، في الشراب، في جمع المال، في الحب أو فيما يظنه حبًّا.

ولم يكن ايلياس صديقه مطبوعًا على شيء من ذلك كله، وإن كان ملازمًا لقيصر في نهاره وليله، وأمثال هذه الصداقة المتباينة كثيرة في أحقاب التاريخ، بين الملوك والأمراء والحكام، من ناحية، ومن اصطفوهم ليكونوا رفاقهم في الحياة، من ناحية أخرى.

أساء يستنيانوس الثاني التصرف في الداخل وفي الخارج على السواء، واشتبك في حروب مع العرب، ومع البلغاريين، وتفاقم الخلاف بينه وبين البابا بروما على الشئون الدينية، وبينه وبين الأساقفة في بيزنطة على الشئون نفسها، وأدى طغيانه إلى حدوث مؤامرات متوالية تمكن من قمعها بإغراقها في الدم.

وحدث في النهاية أن ثار الشعب لما مشى على رأسه رجال الدين ورجال الدنيا معًا، فحاول الإمبراطور أن يقاوم، ولكنه غلب على أمره، وطرد عن عرشه، وحكم عليه المتآمرون بأن يجدع أنفه، وينفى إلى قرية نائية!

كان ذلك في سنة ٦٩٥ للميلاد، أي بعد ارتقاء يستنيانوس عرش الإمبراطورية بعشرة أعوام تمامًا.

وتشتت شمل أصدقائه ومن بينهم ايلياس الوفي الأمين، الذي رأى من الحكمة أن يعتزل الحياة العامة، ويبتعد عن المجتمع البيزنطي مدة من الزمن، بالرغم من أنه لم يكن يعد نفسه مسئولًا عن شيء من أعمال الإمبراطور.

ومرت خمسة أعوام.

تولى الملك في ثلاثة أعوام منها القائد "ليونتيوس" ثم أعلن الأسطول العصيان، وخلع الإمبراطور وأحل محله أمير البصر "تبيروس" فبقي على العرش سنتين، بل كان للإمبراطورية في هاتين السنتين عرشان وقيصران.

ورأى يستنيانوس الفرصة سانحة، فتمكن من الهرب بمساعدة فريق من أعوانه، وعاد إلى القسطنطينية على رأس قوة وضعها أمير البلغاريين حلفه تحت تصرفه، فقبض على ليونتيوس وتيبيروس، وأمر بقطع رأسيهما، واسترجع عرشه، فخضع له الشعب مرة ثانية، مدفوعًا بدافع الخوف لا بدافع المحبة.

كان ذلك في سنة ٧٠٥ حيث بدأت المرحلة الثانية لحكم يستنيانوس الثاني، التي ختمت بقتله سنة ٧١١ للميلاد، الموافقة لسنة ٩٣ للهجرة.

لم يتعلم الرجل من الحوادث التي وقعت في المرحلة الأولى، ولم يستمد منها الدروس والعبر، بل نسي الماضي كله، واندفع في الطريق الذي سار عليه من قبل، وراح يتفنن في أعمال الإرهاق والإرهاب، ويبتكر ألوانًا من التعذيب لا تتفتق عنها غير مخيلات المجانين، ويغوص في الدم حتى الركبتين، وهو يضحك ويغني!

أصيب يستنيانوس بجنون القتل، ولم يكن القتل يرضيه ويشبع نهمه إلا إذا سبقه أو صحبه تعذيب الضحية، وأحب أنواع التعذيب إلى نفس الإمبراطور المشوه، المجدوع الأنف، أن يقطع أنوف الضحايا قبل إرسالها إلى الموت أو إلى المنفى أو إلى السجون!

ريح عاتية من الجنون الإجرامي هبت على العرش البيزنطي، فطوت في أجنحتها الجالس على العرش، وحولته إلى وحش مفترس، أو شيطان رجيم!

وكانت نساء المجتمع في العاصمة الغاصة بالنساء، المفعمة بالجمال،

الغارقة في الفساد، هدفًا من أهداف الإمبراطور المجنون الهائج، فصار يطاردهن حيث يجدهن، أو يبعث زبانيته للبحث عنهن وجلبهن إلى القصر طائعات أو مرغمات، حتى عاد الناس يضجون أكثر مما ضجوا من قبل — ويفكرون في التخلص منه.

وحاول بعض المخلصين لبلادهم من القريبين إليه أن يصلحوا من حاله، ويعيدوا عقله إلى رأسه، والعواطف الإنسانية إلى صدره، ولكنهم فشلوا في محاولتهم..

وكان بينهم ايلياس.

يئس الجميع ما عداه هو...

تركوا الإمبراطور يغرق في غيه وبهتانه، ولكن ايلياس ظل وحده يناضل في سبيل الخير، وما الخير في نظره غير إصلاح الجالس على العرش.

وحدث فجأة ما حمل ايلياس، الوفي الصادق، على سلوك مسلك آخر تجاه الرجل الذي كان يريد أن ينقذه بالرغم منه.

وسبب ذلك الانقلاب المفاجئ في موقف ايلياس: ما قصته عليه صديقته وزوجة صديقه ماركوس، في بيته، حيث جاءته باكية ترتعش من الحياء ومن الغضب في آن معًا.

كانت الأسرتان قد احتفلتا بزواج ماركوس وفوسينا في خلال مدة التي قضاها الإمبراطور يستنيانوس في المنفى، وطلب ماركوس إعفاءه من الخدمة في الحرس الإمبراطوري، فأجيب إلى طلبه، ولكنه عاد إلى الخدمة بعد عودة الإمبراطور من منفاه، كما ظهر معه صديقه ايلياس.

أثبت الاثنان، ايلياس وماركوس، بالدليل الملموس، وفاءهما للإمبراطور في السراء وفي الضراء، في أيام مجده، وفي أيام محنته.

قصت فوسينا على ايلياس ما حدث لها، وما فعله الإمبراطور معها، فأزالت بروايتها الغشاوة عن عينيه وقضت – في صدره – على البقية الباقية من شعور طيب نحو الجالس على العرش.

وقع نظر يستنيانوس مصادفة على فوسينا وهي مع زوجها في أروقة القصر، في إحدى الحفلات، فراقه بهاؤها، وأثار في نفسه الرغبة في امتلاك الحسناء، غير عابئ بمركز زوجها بالنسبة إليه.

أرسل ماركوس في مهمة تستغرق بضعة أسابيع خارج العاصمة، وأوفد الإمبراطور إلى الزوجة رسله يدعونها إلى موافاته في القصر.

لم يتسرب الشك إلى نفس المرأة الشابة في بادئ الأمر، وظنت أن ذهابها إلى مقر الإمبراطور ما هو غير إطاعة لأمر صادر إليها، وقد يكون من وراء ذلك ما يعود على زوجها بالنفع والخير.

ولكن الإمبراطور كان يريدها لأمر لا يجر على زوجها وعليها غير العار، فانتفضت المرأة الشريفة، وقاومت المجنون المتوج، واستخدمت في المقاومة أظافرها وأسنانها، فأدمت وجهه ومزقت ما تبقى من أنفه المجدوع.

وأغمى عليها.

ولما أفاقت، وجدت نفسها وحيدة في حجرة واسعة، وخيل إليها أن الحياة تفارقها مع أنفاسها المتلاحقة.

خرجت من القصر اللعين وعادت إلى بيتها، ولكنها لم تقص على أحد ما حدث لها عند الفاسق الفاجر، وعولت على أن تحفظ السر فلا تبوح به إلا للصديق الذي طالما شملها وشمل زوجها بعطفه، ايلياس الطيب الوفي.

إذن، هذا الإمبراطور، هذا المجنون، الذي ظل ايلياس وماركوس على ولائهما لعرشه، ووفائهما لشخصه، بالرغم من كل شيء، هذا الباغي الأثيم لم يتورع عن الاعتداء على شرف ماركوس، الضابط في حرسه، وايلياس، صديق ماركوس وزوجته!

قصت فوسينا قصتها على الصديق الذي وضعت ثقتها فيه، ثم مسحت دموعها، وانتصبت واقفة، وقالت بصوت فيه بحة، وفيه غصه.

– والآن، أمري بين يديك! إن زوجي لا يعلم شيئًا، ولا أريد أن يعلم شيئًا مما حدث، ولكن هذا يحدث يتطلب الثأر والانتقام، فالشرف المهتوك كالدم المتلول! فهل من سبيل يا ايلياس إلى غسل الإهانة بغير الدم؟

ففتح الرجل ذراعيه للمرأة الحزينة، وضمها إلى صدره، وطبع على جبينها قبلة أخوية طاهرة، ومد يده وقال:

– أقسم بالله يا فوسينا، وبالصداقة التي تربطني بزوجك، أن أنتقم له من الإمبراطور، وان أثأر لك فأمحو العار بدم الخائن!

وبدأ ايلياس يؤدي دوره المزدوج، كان يحرض المتذمرين على الثورة، ويحرض الإمبراطور على الإمعان في طغيانه، لكي يزداد التذمر بين الناس يوما بعد يوم!

وانفجر المرجل مرة أخرى.

ثار أهل القسطنطينية، وشاركهم الجيش في الثورة، وبارك رجال الدين حركة التحرر من النير الثقيل، وأمر يستنيانوس بأن تفقأ الأعين، وتجدع الأنوف، وتقطع الرقاب، ولكن هذا كله لم يخمد نيران الثورة بل زادها ضرامًا.

ونادى الثائرون بأحد زعمائهم، بردانوس، إمبراطور محل يستينيانوس ففر القيصر المجنون، ولجأ إلى إحدى القلاع التي بقيت حاميتها موالية له.

ورافقه في فراره صفيه ايلياس.

وفي القلعة الرهيبة، اختلى الرجل بقيصر، وقذف في وجهه ما أثاره فيه من حقد واشمئزاز سلوك الطاغية مع فوسينا زوجة ماركوس.

وقال ايلياس:

- سأقتلك بيدي. بهذه اليد التي طالما حملت السلاح دفاعًا عنك، سأذبحك لأنقذك من العذاب في حالة وقوعك في قبضة أعدائك وما أكثرهم، ولأنتقم لرجل خنته في زوجته، وامرأة أهنتها في شرفها. ولو كنت مثلك قاسي الفؤاد، وحشي المشاعر، لقطعتك إربًا إربًا، وألقيت أشلاءك للكلاب تنهشها!

أدرك الإمبراطور أن ساعته قد دنت وأن لا فائدة من المقاومة. ولا أمل في الاسترحام، فركع على ركبتيه، وأغمد ايلياس خنجره بين حنقيه.

وكان عمر الإمبراطور اثنين وأربعين عامًا.

العين بالعين

كان الإمبراطور القاسي يحرم الذين يغضب عليهم نعمة البصر، فمات بدوره محرومًا منها!

الأعلام تخفق، والطبول تقرع، والموسيقى تعزف، والهتافات المتصاعدة من الحناجر تشق عنان السماء، والأيدي تصفق أو تلوح بالمناديل، ومن شرفات المنازل ونوافذها كانت الزهور من كل لون تنثر هنا وهناك، والعطور ترش من القماقم على الموكب الملكي الذي يجتاز شوارع المدينة في طريقه إلى الملعب، حيث تقام حفلة قلما شهدت "القسطنطينية" مثلها، ابتهاجًا بالحادث الذي أراد صاحب العرش أن يدون ذكره في صفحات التاريخ!

ذلك الحادث هو عقد الصلح بين الإمبراطور "قسطنطين" وأمه "ايرين" وعودة المياه بينهما إلى مجاريها الطبيعية، وإرغام خصوم الإمبراطورة الوالدة على قبول هذا الحل والعدول عن الخطة العدائية التي أنتجوها تجاهها منذ تولت الوصاية على ابتهاء القاصر.

وكان الإمبراطور يسير في مقدمة الموكب على متن جواده، زيادة في التكريم لأمه، التي كانت تتبعه في مركبة تجرها أربعة خيول مطهمة، وتحيط بها كوكبة من النبلاء والأشراف، ثم فرق الجيش واحدة بعد واحدة، وكان أطفال المدينة قد هرعوا إلى الشوارع والميادين والأزقة، يشاركون الكبار في ذلك المهرجان، فيضحكون ويصفقون ويهتفون، ويلقون الزهور على الموكب ويركضون فرحًا على الجانبين!

وفي ميدان "أيا صوفيا" وقف فريق من الغلمان يقودهم ففي في حوالي العاشرة من العمر، وقد حمل كل منهم رزمة من الورود استعدادًا لإلقائها على الإمبراطور بالذات، وما بدا لهم قسطنطين حتى اندفعوا نحوه مسرعين، وجعلوا يرشقونه بورودهم ويتعمدون إصابته في رأسه ووجهه، مقهقهين فرحين، في جرأة ساذجة لا تقدر العواقب!

وفجأة، رفع الإمبراطور يده إلى عينه وانبعثت من فمه صرخة ألم جعلت فرسان الحرس يسرعون إليه مستفسرين عما حدث.

وكان ما حدث أن أحد الغلمان أراد أن يتغلب على أقرانه في إلقاء الزهور فربط حصاة في وردة كبيرة، لتساعدها على إصابة الهدف، وقذف بها إلى جهة الإمبراطور فأصابته الحصاة في جبينه وجرحته فوق عينه اليمنى، ونزف من الجرح قليل من الدم، لطخ وجه قسطنطين ويده! وتطلع الإمبراطور حوله فرأى الأطفال يهربون خائفين، وأشار إلى حرسه قائلًا في ثورة حقد وغضب:

- أريد منكم أن تقبضوا على الغلام الذي أصابتني زهرته بهذا الجرح، وأن تفقئوا عينيه في الحال، وفي وسط هذا الميدان!

وانطلق الفرسان بخيولهم يطاردون الصبيان الذين تولاهم الهلع فتفرقوا في الأزقة وانسابوا بين جمهور المتفرجين، وتوقف الموكب عن السير، إلى أن عاد الفرسان قابضين على بضعة أطفال بينهم واحد قرر رفاقه أنه صاحب الوردة الأثيمة الملتفة بحجر، والتي أصابت الجبين الإمبراطوري وجرحت العين الملكية!

وفي ميدان "أيا صوفيا" وعلى مرأى من الناس الذين جاءوا لتحية الإمبراطور قسطنطين وأمه "أيرين"، أوثق الجند يدي ذلك الغلام المسكين خلف ظهره، وتناول واحد منهم خنجره وفقأ العينين الصغيرتين، والصبي يصرخ من الألم، ويبكي بدل الدمع دمًا، ورفاقه يرتعشون من الخوف، ويبكون مثله دموعًا غزيرة!

ولما انتهى الجند من مهمتهم الوحشية، قال الإمبراطور:

– ابحثوا الآن عن أم هذا الطفل، وقولوا لها إنني سأجري عليها معاشًا من خزينة الدولة، لكي تعني بابنها الضرير، وتعلمه كيف يحترم الإمبراطور بعد الآن!

وأصدر أمره بمواصلة المسير.

كان "قسطنطين السادس" إمبراطور الروم، في العاشرة من العمر عندما خلف إياه "لاوون" الرابع على عرش القسطنطينية، في سنة ٧٨٠ للميلاد، وتولت الوصاية عليه أمه "أيرين" الطموح المتعجرفة القاسية، فاستأثرت بالسلطة واستبدلت في حكم الرعية، وانغمست في المشاحنات الدينية التي كانت العاصمة الرومية في ذلك الوقت مسرحًا لها، واغترفت الأموال بلا حساب ولا رقابة من خزينة الدولة، فأنفقتها على ملاذها وعلى العناية بالحرس الذي أحاطت به نفسها، خوفًا من ثورة الشعب وبطش النبلاء، وأوفدت رسلها المزودين بالمال والهدايا إلى الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومية الشرقية، بل إلى ما وراء حدود الإمبراطورية، إلى بلاد الأرمن وسوريا ولبنان ومصر والحبشة، لإغراء الرجال الأشداء واختيار ذوي الجرأة والإقدام

منهم للانخراط في سلك ذلك الحرس الخاص، فوفد إليها العاطلون والمرتزقة وهواة المغامرة من كل فج وصوب.

وكان بين الوافدين رجل من مدينة بيروت يمارس صيد الوحوش والجوارح في غابات لبنان، ويعرف باسم "بولس الصياد" نسبة إلى مهنته، وقد غره المال وزاده رغبة في الرحيل إلى عاصمة الروم المشهورة، قبول رسل الإمبراطورة أن ترافقه زوجته "سوسان" وتظل ملازمة له في القسطنطينية.. فما أن استقر الزوجان اللبنانيان في موطنهما الجديد، حتى صار "بولس" موضع رضا رؤسائه، واسترعت قامته الفارعة أنظار الإمبراطورة نفسها، فأمرت بأن يكون واحدًا من الحارس العشرة الذين يتناوبون السهر على حياتها ليلًا ونهارًا، اثنان منهم بعد اثنين!

ورزق "بولس الصياد" من زوجته ابنا سماه "قسطنطين" تيمنًا باسم الإمبراطور الصغير، ابن الإمبراطورة التي أخلص الرجل في خدمتها، وتفانى في السهر عليها.

وظل قسطنطين السادس مستسلمًا لأمه، خاضعًا لإرادتها، وكانت هي من ناحيتها تهمل تربيته، وتتعمد تغذية روح الغضب والخمول في نفسه، وتثير في صدره الحقد على عظماء المملكة وأقطاب الدولة وقواد الجيش، وتوهمه أنها الشخص الوحيد في العالم الذي يحبه يرعاه ويحميه من غدر الغادرين وكيد الكائدين، فيزداد الفتى تعلقًا بها، وانقيادًا لها، اعتقادًا منه أن ممارسته للحكم من دونها سوف تورده موارد الهلاك!

ولكن النبلاء في العاصمة ضاقوا ذرعًا بالإمبراطورة العاتية، وتململ الشعب في النهاية من وطأة الطغيان ونهم "ايرين" الدائمة بالسعي إلى المال،

حتى بلغ بها الأمر أن جعلت تتجر بقوت الكادحين من أبناء الطبقات الفقيرة، وتبيع الرتب والألقاب بالمزاد، وتفرض الضرائب حتى على الأديرة والكنائس، مما أثار أيضًا نقمة رجال الدين ودفعهم إلى التآمر عليها مع النبلاء وعامة الشعب.

وشعرت الإمبراطورة بان التذمر بدأ يدب في صفوف رعيتها من أعلى الطبقات إلى أسفلها، فثبت جواسيسها في كل مكان، وتذرعت بمختلف العلل والأسباب للقبض على بعض من وشي بهم أولئك الجواسيس، فحكمت عليهم بأن تفقأ عيونهم، وكان هذا النوع من العقوبة كثير الشيوع في القسطنطينية، وكانت ايرين دائمًا تهمس في أذن ابنها الإمبراطور الشاب: "لا تعمد في الانتقام من أعدائك إلا إلى نوع واحد من التعذيب أفقأ عيونهم، ودعهم يجروا في الظلام أثقال الأيام والآلام"! وعنها تلقن الابن هذا الدرس، فراح يقلد أمه ويأمر بأن تفقأ عيون الذين تحل بهم نقمته، أو يبدر منهم شيء لا يرضي عنه الشاب المتوج الرعديد.

ولكن وطأة التذمر إلى الجيش فتآمر قواده على خلع الإمبراطورة ونزع كل سلطة منها، واتفقوا على أن يخلعوا الإمبراطور نفسه إذا رفض التخلي عن أمه، وآثر رضاها على رضا الجيش والشعب، وفي أواخر سنة ٧٨٩، زحف الجيش على القصر الإمبراطوري، ووجه إنذار إلى قسطنطين السادس، فأذعن الإمبراطور للإنذار، واستجاب لرغبة الشعب، وأمر أمه بان تعتزل الحكم وتعتكف في أحد قصورها، بعيدة عن الحياة العامة وعن التدخل في شئون الدولة، كما أمر بأن يسرح رجال الحرس الخاص بالإمبراطورة، وأن يصرف ممن شملهم هذا القرار الجندي "بولس الصياد" فانصرف من جديد

إلى الصيد والقفص في الجبال والغابات، على حين كانت زوجته تواصل العناية بشئون المنزل وتربية وحيدهما قسطنطين.

غير أن استئثار الإمبراطور بالسلطة لم يكن حلًّا للأزمة التي تعانيها الإمبراطورية المتضعضعة. ولم يكن قسطنطين السادس الرجل الحازم الذي يستطيع أن ينهض بالبلاد من كبوتها، وأن يعيد إلى النفوس طمأنينتها، فقد أدى اضطلاعه وحده بمقاليد الحكم إلى حدوث انقسام في الرعية، وعادت المشاحنات الدينية التي سابق عهدها، وأدرك الشاب المسكين أن يده أضعف من أن تقبض على زمام الأمور، وما مرت سنتان على اعتزال أمه، حتى كان قسطنطين يهرع إليها متوسلًا باكيًا، ويرجوها أن تعود إلى سابق سيرتها معه، فتشاركه في الحكم، وتسند عرشه بحزمها وجرأتها!

وخرجت "ايرين" من عزلتها، ملبية نداء ابنها، ونسي الشعب – والشعوب سريعة النسيان – ما كان منها بالأمس، وكيف أرغمت على التخلي عن السلطة، فاحتشد الناس على جانبي الطرق والشوارع، وملئوا الميادين، ووقفوا في شرفات المنازل وعلى سطوحها، لتحية الإمبراطورة التي احتفل ابنها بعودتها، وأقام ذلك المهرجان، وأمر بأن تجري المسابقات والمصارعات في الملعب الإمبراطوري، تكريمًا لأمه وابتهاجًا بمقدمها.

في ذلك اليوم الذي أراده قسطنطين السادس أن يكون يوم عيد مفعم بالسرور، وقعت حادثة الغلام الذي قذف زهرة مثقلة بحجر.

فجرح صاحب العرش في جبهته، وصدر الأمر الإمبراطوري بان تفقأ عيناه، ونفذ الأمر في ساحة الكنيسة.

ولم يكن ذلك الغلام غير سمية قسطنطين، ابن الجندي السابق بولس الصياد وزوجته سوسان اللبنانيين!

كان ذلك في سنة ٧٩٢، وقد نقل الغلام الضرير مغمى عليه إلى بيت أبويه، وكانت مناحة في البيت الهادئ، بكت فيها الأم مصابها في وحيدها، ولعن فيها الأب تلك الساعة التي هجر فيها وطنه اغترار بالمال، ودخل في خدمة قوم خلقوا على صورة البشر ولكن صدورهم انطوت على أبشع الغرائز الحيوانية، فهم والوحوش الكاسرة التي يطاردها بولس الصياد في البراري والأحراج سواء بسواء.

رفضت "سوسان" قبول المعاش الذي أراد الإمبراطور أن يجريه عليها، قائلة أنها لا تتقاضى ثمن عيني ولدها، اللتين سلمتا بأمر من الطاغية، وإن زوجها قادر والحمد لله على الأنفاق عليها وعلى ابنها، وأن كنوز الإمبراطور كلها لن تعيد إلى الغلام المسكين نعمة البصر، ولن تعوضه عن فقدها..

وأحاطت الأم الحزينة وحيدها بعطفها وحنانها، وتباحثت مع زوجها فيما بقى عليهما أن يصنعاه بعد تلك الكارثة التي حلت بالأسرة الصغيرة، فأقترح الزوج أن يرحلوا جميعًا عن بلد هذا مبلغ الهمجية فيه: وأن يعودوا إلى وطنهم الذي هجروه، ويستأنفوا حياتهم في جو خال من الدسائس، وبين أناس تربطهم بهم أواصر المحبة ووحدة الآمال والأماني.

ولكن الزوجة عارضت في هذا ولم توافق على الحل الذي اقترحه زوجها، فهي تريد أن تنتقم وأن تأخذ بثأر ابنها من القساة الظالمين الذين حرموه النور وهو لم ينعم بعد بالحياة وهنائها، وقالت المرأة للرجل بعد أن أفضت إليه بعزمها على البقاء في العاصمة:

- العين بالعين يا بولس! لقد سمل الإمبراطور عيني ولدي، فسوف أقف حياتي كلها لبلوغ هدف واحد لن أسعى إلى سواه بعد الآن.
- وما ذلك الهدف يا سوسان؟
- سأحرم قسطنطين الإمبراطور البصر، كما حرم هو قسطنطين ولدي البصر، وسيموت الطاغية أعمى كما سيموت وحيدنا هذا أعمى!
- وكيف السبيل إلى ذلك؟
- سوف تدعو الإمبراطورة غدا رجال حرسها السابقين إلى استئناف الخدمة في قصرها، فلن تلبي النداء أنت، بل تعتذر عن تخلفك بأنك مريض محتاج إلى الراحة، ولكنك ستطلب من الإمبراطورة أن تأخذني أنا في خدمتها، وصيفة أو كهرمانة، وتذكرها بأنني أحسن فن التجميل، وأتقن استخراج العطور من الزهور والأدوية من الأعشاب، هذا ما أريده منك، وأما الباقي فإنه من شأني أنا.

نجح بولس الصياد في التهرب من الخدمة في حرس الإمبراطورة، وفي حملها على قبول زوجته سوسان وصيفة في قصرها، وراحت المرأة تتفنن في إرضاء مولاتها بما كانت تبتكره من وسائل التسلية وأنواع التجميل والتبرج وإعداد العقاقير وما كانت تسميه "ماء الحياة وأكسير الحب وزبدة الهناء" مدعية أن ذلك كله علم سري ورثته عن أجدادها الذين ورثوه من ناحيتهم عن قدماء الفينيقيين، وقد أخذ هؤلاء عن الكهنة المصريين وخدام المعابد في منف وطيبة! وصدقت "ايرين" ما ذهبت إليه "سوسان" واطمأنت إليها، واتخذتها رفيقة لها وأمينة على أسرارها، وما مرت شهور حتى كانت المرأة

اللبنانية صاحبة الأمر والنهي في قصر الإمبراطورة، لا ترد لها رغبة ولا يخالف لها أحد رأيًا.

ولما وثقت سوسان من مركزها، جعلت تنفذ – مرحلة بعد مرحلة – الخطة الماكرة التي رسمتها في ذهنها، فتقربت من ذوي النفوذ في القصر والجيش، وراحت توغر صدر الإمبراطورة الأم على ابنها، وتوهمها بأنه يكيد لها في الخفاء للتخلص منها مرة أخرى، بل للقضاء على حياتها لكي يخلو له الجو من جديد ويستأثر بالحكم، فاعتقدت ايرين في النهاية أن قسطنطين السادس إنما جاء بها من عزلتها إلى القصر، لا للاستئناس برأيها والاعتماد على مشورتها كما يدعي، بل ليقتلها ويأمن شرها.

وفي الوقت نفسه، كان شركاء سوسان في قصر الإمبراطور يثيرون نقمته على أمه، ويغذون مخاوفه منها، فاعتقد قسطنطين من ناحيته أن ايرين ستعمد في أول فرصة سانحة إلى قتله، لتصبح وحدها سيدة الإمبراطورية بلا منازع.

وفي ليلة من الليالي المظلمة، سنة ٧٩٧، وثب أنصار الإمبراطورة على القصر، وقبضوا على الإمبراطور، وجاءوا به موثق اليدين إلى أمه!

وكانت سوسان رابضة على مقربة من مولاتها، عندما دخل الابن عليها، فلاحت للمرأة اللبنانية صورة وحيدها الضرير، وارتسمت على محياها الجميل إمارات الحقد والشراسة وهي تنظر إلى وجه الإمبراطور الشاحب، وإلى عينيه الجاحظتين من الخوف، أنه لا يزال ينعم بالبصر، فيرى النور، ويرى الشمس، ويرى وجوه الناس وألوان الزهور! أما ابنها، فإنه يعيش في ظلام دامس لن تبدده الأيام.

وانسابت المرأة انسياب الحية نحو الإمبراطورة ايرين الجاثمة على أريكتها، وهمست في أذنها بهذه الكلمات.

– إما أن تسلمي عينيه اليوم، وإما أن يسمل عينيك غدًا، هده سنة أسرتكم وهذه تقاليدها يا مولاتي!

فأخفت الإمبراطورة وجهها بين يديها، وهمهمت قائلة في حشرجة أرادتها أن تكون أمرًا ملكيًّا:

– أنزلوا به العقوبة التي تعرفون..

ووثب زبانية الإمبراطورة على الإمبراطور، ولكن سوسان اللبنانية كانت أسرع منهم، فقد تناولت من صدرها دبوسًا فضيًّا أعدته لتلك الساعة الرهيبة منذ أعوام، وانقضت على قسطنطين السادس، وطعنت بيدها الطعنة الأولى في العينين الجاحظتين. ودوى صياحها في أرجاء القاعة أشبه بالزئير:

– لقد ثأرت لك يا قسطنطين من قسطنطين!

كان ذلك في سنة ٧٩٧. وقد صبرت سوسان وانتظرت خمسة أعوام، حتى أزفت ساعة الانتقام الذي سعت إليه فقد سملت بيدها عيني الإمبراطور الذي أمر في سنة ٧٩٢ بأن تسمل عينا وحيدها، وعادت إلى زوجها فرحة متهللة. وأكبت على ابنها الضرير تغمره بالقبلات، وقالت في لهجة ثابتة هادئة، وقد انبسطت أساريرها:

– الآن يمكننا أن نرحل عن هذا البلد الموبوء، وأن نرجع إلى وطننا الجميل، فهيا بنا يا بولس.

وقفلت الأسرة الصغيرة عائدة إلى جبال لبنان.

أما الإمبراطورة "ايرين" فقد جلست على عرش الإمبراطورية الرومية الشرقية وحدها، واتخذت لنفسها لقب "إمبراطور" وحكمت بمفردها خمسة أعوام أخرى، إلى أن حدثت ثورة ثالثة خلعتها عن العرش، ولكن الذين خلعوها لم يعمدوا إلى توقيع العقوبة التقليدية عليها، ولم يسملوا عينيها، بل نفوها إلى جزيرة لسبوس في سنة ٨٠٣، فماتت فيها بعد عشرة شهور من وصولها إليها.

وقد عاصرت هارون الرشيد، الذي غزا بلادها، وهزم جيشها، ثم عقد معها صلحًا، وفرض عليها جزية، وساعدها على البقاء على العرش.

امرأة وثلاثة رجال

أحبها اثنان وأخلصا لها، فخانتهما، وأحبت ثالثًا وأخلصت له فخانها!

الليل مظلم حالك السواد، لا قمر في سمائه ولا نجوم، فقد نشرت الغيوم بينها وبين الأرض ستارًا كثيفًا، والسكون تام شامل، لا يمزقه من وقت إلى آخر غير ضرب المجاديف صفحة الماء، وزحف الزوارق زحفًا سريعًا بين ضفة البوسفور الجنوبية وضفته الشمالية.

وفي الزورق رجل ملتحف برداء قاتم، ومعه أربعة من الخدم يدفعون الزورق بمجاديفهم نحو مكان عينه لهم سيدهم، وهم يتجهون إليه بدون أن يروه.

ووصل الزورق إلى مرسى الأمان، وقفز منه الرجل الملتحف بالرداء القاتم، واتجه مسرعًا إلى سور شاهق في نهايته باب صغير، ونقر على الباب أربع نقرات، ففتح الباب، وظهرت منه جارية ملثمة بخمارها، فدخل الرجل، وتبع المرأة بين أشجار الحديقة الوارفة، واجتاز معها سردابًا في نهايته باب آخر، ثم ممر، ثم باب.

وتقبل "جان زيميريس" بين ذراعيه حبيبته "تيوغانون" وكان عناق، وكانت ساعات كلها غرام وسعادة وهناء، أضيفت إلى ما سبقها من ساعات مماثلة لها.

وقبيل الفجر، أراد الرجل أن ينصرف من مخدع حبيبته، عائدًا من حيث أتى، فأمسكت به تيوفانون ومنعته من الخروج قائلة:

– لا يا جان، لن أرضى بأن تستمر علاقاتنا على هذا النحو من القلق والاضطراب والخوف، يجب أن تبقى هنا، وإذا كان لابد أن يخرج من القصر أحد، فلن تكون أنت ذاك الرجل... بل الإمبراطور!.

وطوقت المرأة عنق الرجل بذراعيها العاريتين، وأعطته قبلة وأخذت أخرى، ثم جلسا يتبادلان الحديث، ويرسمان خطة المؤامرة التي اعتزما القيام بها للتخلص من الإمبراطور، والاستئثار بالعرش.

وتم الاتفاق بين الاثنين على تلك الخطة جملة وتفصيلًا، وارتاح "جان زيميزيس" إلى ما عرضته عليه "تيوغانون"، وإلى القسم الذي قطعته على نفسها بأن تظل وفية له مهما تكن الظروف والأحوال في مستقبل الأيام، وقابل قسمها بقسم مثله، وقضيا ذلك اليوم في خلوة تامة، فلم تدخل عليهما في مخدع الإمبراطورة غير تلك الجارية التي أطلعتها تيوفانون على كل أسرارها.

ولما أسدل الليل ستره مرة أخرى، أوى الرجل إلى الفراش، واستغرق في نوم هادئ مستسلمًا للأحلام الحلوة التي بدأت تتحقق شيئًا فشيئًا.

أما المرأة فقد جلست بجوار الشرفة المطلة على حدائق القصر، وأطلقت لذكرياتها العنان، فمرت في ذهنها الحقائق والوقائع التي تخللت حياتها، وهي أروع من كل حلم وأجمل من كل خيال!

رأت تيوفانون نفسها طفلة عارية تمرح في الأزقة مع الأطفال أبناء الجيران، في الحي المعروف بحي الخمارات والحانات، بمدينة قسطنطينية المترامية الأطراف.

أبوها سوري من أنطاكية وأمها مصرية من الإسكندرية، ساقتهما الأقدار أمامها دفعًا إلى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، حيث التقى السوري بالمصرية، وكانت هي تبحث عن رفيق، وفي ديار الغربة، تزوج الغريبان، وفتح الرجل حانوتًا لبيع الخمور، وكانت زوجته الشابة تساعده في عمله.

ورزقا ابنة وحيدة هي تيوفانون.

ولما بلغت الطفلة العاشرة من العمر، أعدها والدها لخدمة الزبائن في الحانة.

وكانت ذات يوم تطوف بشوارع المدينة الكبيرة مع أمها، فرات الإمبراطور قسطنطين السابع في موكبه، يجتاز الشوارع ومعه الإمبراطورة زوجته، فقالت لها أمها:

– تمني شيئًا يا تيوفانون... فإن الله يحقق الأمنية التي يعبر عنها الأطفال إذا ما فعلوا ذلك أمام الإمبراطور والإمبراطورة!

وقالت تيوفانون بكل بساطة:

أتمنى يا أماه أن أصبح إمبراطورة مثل هذه، وأن يكون زوجي إمبراطورًا مثل هذا!

وضحكت الأم وضحك الأب لما رددت زوجته على مسامعه ما تمنته ابنتهما الصغيرة، وضحك الجيران وأبناء الجيران.

وضحكت الأقدار أيضًا، ولكنها شاءت أن تتحقق أمنية تيوفانون ابنة الخمار السوري.

فقد مرت الأيام وانقضت الأعوام، وشبت الصغيرة وترعرعت، وفي لفتة من لفتات تلك الأقدار وقع على الحسناء نظر الأمير "رومانوس" ابن الإمبراطور قسطنطين السابع، فعلق بها، وسعى إلى لقائها، ووضع تحت قدميها ماله ومركزه وقلبه، فكان رد الفتاة على تلك المكاشفة الغرامية أن قصت على الأمير ابن الإمبراطور ما حدث لها مع أمها يوم التقت بموكب أبيه في شوارع بيزنطة.

فصاح رومانوس قائلًا:

- إذن ستصبحين زوجتي، وعندما أرتقي العرش، ستصبحين إمبراطورة متوجة، فتتحقق الأمنية التي توجهت بها إلى الله في ذلك اليوم السعيد!

كان ذلك في سنة **٩٥٦** للميلاد: فقد تزوج الأمير رومانوس ابن الإمبراطور قسطنطين السابع، الفتاة تبوفانون ابنة صاحب الحانة السوري.

وبعد ثلاثة أعوام – أي في سنة **٩٥٩** – مات قسطنطين، وخلفه رومانوس على العرش، وتكرر لتيوفانون ما حدث من قبل لتيودورا؛ فأصبحت الفتاة المجهولة الوضيعة إمبراطورة على بيزنطة!

لم يحقق "رومانوس الثاني" الآمال التي وضعها شعبه فيه، لأنه انصرف إلى اللهو بدل أن ينصرف إلى الاهتمام بشئون الدولة، وشجعته زوجته الحسناء على المضي في عبثه، لأنها كانت شديدة الظمأ إلى التمتع بملاذ الحياة، ولم تكن تحب زوجها؛ فدفعت به إلى أحضان الرذيلة ليخلو لها الجو فتندفع من ناحيتها إلى الطريق الذي تريد.

ولكن السنوات القليلة التي قضاها رومانوس على العرش، كانت مفعمة بالأحداث الحربية والفتوح والغزوات التي تولاها قادة موهوبون على رأسهم "نكفورس فوكاس".

ولما أشرف الإمبراطور على الموت، كانت الزوجة قد حسبت لكل مفاجأة حسابها، فتقربت من القائد المنصور المحبوب من الشعب، وكاشفته بحبها، واتفقت معه على أن تسنده في سعيه ليثب إلى العرش بعد رومانوس، على شرط أن يبقيها هي على ذلك العرش، فيجعلها زوجته بعد وفاة زوجها!.

وفي سنة ٩٦٣، مات رومانوس الثاني في الرابعة والخمسين من العمر، وأجلس الجيش على العرش قائده "فوكاس"، وأبقى الإمبراطور الجديد زوجة الإمبراطور السابق إمبراطورة بجانبه.

وتحققت الأمنية مرة أخرى، واحتفظت المرأة ذات الزوجين بعرش بيزنطة.

كان نكفورس فوكاس في الواحدة والخمسين من العمر، وهو ربيب الحروب، وأخو النصر، وحبيب الشعب، ولكنه ليس بالرجل الحائز على قلب تيوغانون، وإن كان حائزًا على رضاها وتأييدها، فقد حالفته تلك المرأة الجميلة الطموح، ومهدت له السبيل إلى العرش، وأعطته ذراعها فاستند عليها لارتقاء درجاته، ولكنها لا تحبه.

رضيت به زوجًا لتحتفظ بالملك، وبحثت عن عشيق بين رجال حاشيته لتغذي قلبها بعاطفة الحب.

ووقع اختيارها على القائد "جان" الملقب بالصغير – أي زيميزيس – وهو أرمني من سورية، ولد على ضفاف الفرات، وجاء إلى بيزنطة كما جاء إليها من قبل والد تيوفانون ووالدتها، فضحك له الحظ وساعدته الظروف، فانتقل من حال إلى حال، وأحرز على رأس حملات عسكرية متوالية، انتصارات باهرة في الشرق والغرب، فأثار بذلك حسد أقرانه من قواد الجيش.

ومما ضاعف حسدهم وجعل الحقد يأكل قلوبهم، إن الإمبراطورة تيوفانون خصت القائد زيميريس بعطفها، وإن ذلك العطف تحول سريعًا إلى حب، فهيام.

وفطن الجميع إلى تلك العلاقة التي قامت بين الإمبراطورة والقائد المحظوظ، ما عدا الزوج الإمبراطور نكفورس فوكاس.

ولكن الحساد خصوم جان زيميزيس تطوعوا باطلاع الإمبراطور على ما كان يجهل، وفتح عينيه على ما كان خافيًا عنه، وإعطائه الدليل الملموس على خيانة زوجته وقائد جيشه.

واطلع نكفورس وراي، وأيقن أن ما قيل له صحيح لا شك في صحته، وعول على الانتقام.

ولكنه كان يخاف زوجته، ويعرف أن سلطانها عظيم ونفوذها واسع، وإن في مقدورها انتزاع العرش منه إذا شاءت.

فقرر أن يضرب ولكن بعد أن يضع قبضته في قفاز من حرير.

وتشاور مع قواده المحسودين من العاشق السعيد، وأسفر التشاور عن

صدور أمر من الإمبراطور إلى القائد جان زيميزيس بأن ينتقل إلى قصر وضعه نكفورس تحت تصرفه على ضفة البوسفور الأسيوية، ويتخذه مقرًّا لقيادته، على أن تمتد تلك القيادة إلى الحاميات المرابطة في آسيا الصغرى، وألا يزور القائد مدينة بيزنطة العاصمة إلا بإذن خاص من الإمبراطور.

ومعنى هذا أن القائد جان زيميزيس. عشيق الإمبراطورة تيوفانون قضي عليه بالإقامة الجبرية في قصر منيف، بعيدًا عن عشيقته،

وانفجرت مراجل الحقد في صدر المرأة.

إنها لا تحب الإمبراطور، الذي يدين لها بعرشه، فهل تسكت علم ملك المرأة التي أراد بها الزوج الغيور إقصاء عشيقها عنها، وربما أراد بها أيضا التخلص منه بالسم أو بالخنجر؟

كلا! إن تيوفانون لن تسكت!

ولم تسكت في الواقع: فقد خابرت عشيقها سرًّا، ومهدت له السبيل لكي يخرج من قصره ليلًا، كلما أراد ذلك، ويجتاز البوسفور، ويجيئها إلى مخدعها في القصر الإمبراطوري، حيث يجتمع العشيقان.

ولكن الإمبراطورة العاشقة تعبت مع الأيام من التخفي واللف والدوران، فاعتزمت أن تضع حدًّا لهذه الحالة.

ورسمت خطة الخلاص مع عشيقها، في ذلك اليوم الذي استبقته فيه داخل مخدعها، في القصر الإمبراطوري، ومنعته من العودة إلى مقره على ضفة البوسفور الجنوبية.

قالت تيوفانون:

– هذا هو سبيل الخلاص الوحيد: مؤامرة في داخل القصر، وتأييد من الجيش لقائده، وفتلك بالملك، وجلوسك مكانه على العرش!

ووافق جان زيميزيس، وبدا منذ ذلك اليوم يعد العدة لتنفيذ ما اعتزم مع عشيقته.

وشعر الإمبراطور فوكاس بأن الجو يتسمم حوله، وأن مؤامرة تحاك خيوطها في داخل القصر وخارجه، فخاف على حياته، وأعد برجا من الأبراج الحصينة، في أحد أطراف الحديقة، على ضفاف البوسفور، ليكون له مقرًّا ومقامًا.

وأصبح الصراع سافرا بين الإمبراطورة وعشيقها وأعوانهما من ناحية، والإمبراطور وقواده المخلصين من ناحية أخرى.

وكان لابد أن يهزم فريق وينتصر فريق، وأن يبقى المنتصرون، ويقضى على المهزومين.

وفي ليلة ليلاء – ١٠ من ديسمبر سنة ٩٦٩ – نفذت خادمات الإمبراطور، اللواتي اشترتهن تيوفانون بالمال، أوامر موالاتهن، لتمكين المتآمرين من دخول البرج والفتك بالإمبراطور.

ففي تلك الليلة تدلت من نوافذ البرج سلال ضخمة مشدودة إلى حبال.

واستقرت السلال في أسفل البرج..

وتربع فيها جان زيميزيس وأعوانه، فرفعتهم الخادمات إلى أعلى، ودخلوا البرج من نوافذه.

وكان الإمبراطور نكفوس فوكاس نائمًا في حجرة ضيقة، على فراش من جلود الدببة.

ولمعت النصال في أيدي المتآمرين، وتدفقت الدماء من عشرة جروح مزقت جسم الإمبراطور.

وبعد ساعة كان جان زيميزيس قد استولى على القصر الإمبراطوري، وكان أعوانه قد أعلنوا في ميادين العاصمة، وقبل أن ينتظروا طلوع الفجر، أن إمبراطور مات، وإمبراطور خلفه!

وأفاق الشعب على ما حدث، وهلل وصفق وهتف، وأقسم الجيش يمين الولاء لقائده، وقد أصبح إمبراطور باسم "جان الأول" وردد اسم "تيوفانون" مقروناً باسم الإمبراطور الجديد، لأن الشعب كان يعلم ويدرك أن ما حدث إنما هو من صنع الحسناء التي يجري في عروقها مزيج من الدم السوري والمصري، والتي أحبها الناس بالرغم من عيوبها وسيئاتها، واعتقدوا في النهاية أنها ساحرة قادرة على اللعب بالقلوب والعقول بمقدرة خارقة.

ولكن رجال الدين، وعلى رأسهم البطريرك الكبير، رفضوا تتويج الإمبراطور الجديد إلا إذا أبعد الإمبراطورة زوجة الإمبراطورين السابقين عن العاصمة، ونفاها في أحد الأديرة.

وتغلبت المصلحة على العاطفة، وانهزم الحب أمام الطمع، وقرر جان زيميزيس أن يضحي بالمرأة من أجل العرش.

فقبض على تيوفانون، وأرسلها في حراسة شديدة إلى دير بجزيرة "بورتي".

واستأثر لنفسه، وظل جالسًا عليه أن فاجأه الموت في سنة ٩٧٦. ففتحت أبواب الدير لتخرج منه "الراهبة" تيوفانون!

عاشت الإمبراطورة السابقة ما تبقى من عمرها في جناح منعزل داخل القصر الإمبراطوري، ممتنعة عن التدخل في شئون الدولة، مختليه بذكرياتها الكثيرة، مستعرضة ماضيها العجيب.

ثلاثة رجال أدوا دورًا في حياتها وأدت هي دورًا في حياة كل منهم.

تزوجت الأول عن طمع، فأحبها وأخلص لها.

وتزوجت الثاني عن مصلحة، فأحبها أيضًا وأخلص لها:

ولكنها خانت الأول، وخانت الثاني!

أما الثالث، فقد أحبته ورفعته إلى العرش، وأرادت أيضًا أن تتزوجه فتخلى عنها، وخانها!

والحياة مملوءة بالحب والخيانة!

الحب القاهر

لعب بقلوب النساء، فلعب الحب بقلبه، وألقاه ذليلًا طائعًا خاضعًا بين أيدي خصومه!

نزع "أندرونيكوس كومنين" حمائل سيفه ودرعه الثقيلة وخوذته الفولاذية، وألقى بذلك كله على الأرض أمام "نيكفوروس" حاكم "طرابزون"، وقال بصوت متهدج والعبرات تكاد تخنقه:

- لقد لعبت بقلوب النساء كما لعبت بعقولكم جميعًا يا حكام الإمبراطورية البيزنطية. وها هو ذا الحب يقهرني اليوم فأقف أمامك مستسلمًا ذليلًا! ابعث بي إلى سيدك الإمبراطور. ليفعل بي ما يشاء، على شرط ألا يفرق بيني وبين المرأة التي أحب!

فارتسمت على وجه الحاكم البيزنطي أمارات الارتياح الممزوج بالحقد والتشفي، وأجاب بلهجة جافة:

- للإمبراطور ماثوئيل كومنين وحده أن يصدر حكمه لك أو عليك، وفي يده دون سواه الأمر والنهي!
- إن رابطة الرحم تجمع بين الإمبراطور وبيني، فأرجو ألا يكون موقفه أقل نبلًا وشهامة من موقف السلاطين والأمراء المسلمين الذين أحلوني في كنفهم ضيفًا مكرمًا!

وفي اليوم التالي، خرج الأسير من مدينة "طرابزون" في حراسة كوكبة من

الفرسان، عهد إليها الحاكم "نيكفوروس" بأن ترافقه إلى بيزنطة مقر الجالس على العرش.

وفي طريقه إلى عاصمة الإمبراطورية، لزم "أندرونيكوس" الصمت، وراح يفكر في ماضيه المضطرب، وفي مستقبله المجهول.

من هو؟ وماذا صنع؟ وما الذي دعاه إلى تسليم نفسه من أجل امرأة؟

هو ابن عم الإمبراطور "ماثوئيل كومنين" والشعب البيزنطي يعرفه، ويقدر شجاعته في الميادين، ويعده أجمل الرجال، وأوفرهم قوة وأبعدهم صيتًا، وأحلاهم حديثًا، وأكثرهم تأنقًا، وأحبهم إلى قلوب النساء!

ولم يكن البيزنطيون مخلطين في اعتقادهم هذا، فإن "أندرونيكوس كومنين" كان يجمع بين تلك الصفات، ولكنه يمزجها بكثير من العيوب، وهو فوق ذلك كله سكير عربيد!

وكانت النساء شغله الشاغل، يبحث عنهن بحث النحلة عن طيب الأزهار، ويلاحقهن في الجهر والخفاء، ويطاردهن في المدن والقرى والحقول، لا يصحو من نشوة الحب إلا في ميادين القتال، ومن نشوة النصر إلى في حضور الحسان!

أراد ابن عمه "مانوئيل كومنين" أن يبعده عن العاصمة فعينه قائدًا لكتائب الفرسان في مقاطعة "كيليكيا"، وكان ذلك في سنة ١١٦٦ ميلادية، الموافقة لسنة ٥٦١ للهجرة – وقد جاوز "أندرونيكوس" السادسة والأربعين، وما كاد يستقر به المقام في منصبه، حتى اندفع في مغامرة غرامية جديدة، أثارت عليه كوامن الحقد في صدر ابن عمه الإمبراطور.

فقد كان للإمبراطورة "ماري" زوجة "مانوئيل كومنين" أخت تدعى "فيليبا" تقيم مع أخيها "بوهيموند الثالث" الصليبي، أمر أنطاكية، وكانت "فيليبا" في الحادية والعشرين من العمر، فعول "أندرو نيكوس" على التغرير بها كما غرر بسواها من قبل، فأسرع إلى أنطاكية حيث جعل يضيق الخناق على الفتاة الجميلة الفاتنة، ويمنيها بالوعود ويخدعها بالعهود، قائلًا: إنه يريدها زوجة له، تشاركه في حياته وثروته ومجده، فوقعت فيليبا في حبائله، واستسلمت له، وأصبحت علاقة القائد بفتاة أنطاكية الهيفاء حديث المجالس في المدينة، وبلغت أخبارهما مسامع الإمبراطور في بيزنطة.

غضب مانوئيل وأوفد الرسل إلى ابن عمه ينذره بوضع حد لتلك الفضيحة الأخلاقية الجديدة، ويدعوه إلى العدول عن المضي في غوايته، ولكن أندرو نيكوس أصم أذنيه عن نداء الإمبراطور، وأجاب الرسل قائلًا: "متى كان لصاحب العرش أن يتحكم في قلوب الرعية؟".

وعمد مانوئيل إلى آخر سهم في كنانته، فأوفد إلى ابن عمه المغامر في هذه المرة رجلًا له من اسمه ومنصبه وماضيه ما يكفي من رهبة السلطان، لإرغامهما على الافتراق، ذلك الرجل هو المير البلغاري كولومان حاكم كيليكيا العام ونائب الإمبراطور فيها، ولكن عبثًا حاول ذلك السياسي الداهية أن يقنع فيليبا بأن تقلع عن سلوكها الشائن، وبلغ به الهوس أن عرض عليها الزواج إذا هجرت حبيبها.

فرفضت الأميرة الإفرنجية رجاءه، وظلت بضعة شهور تظهر أمام الناس برفقة أندرو نيكوس.

غير أن أندرونيكوس نفسه هو الذي هجرها، فخسرت فيليبا فيه صديقًا، وخسرت في الحاكم كولومان زوجًا ...

كانت سنة ١١٦٧ قد أقبلت، فعزم أندرو نيكوس على العودة إلى كيليكيا أو إلى بيزنطة، ولكن الإمبراطور حرم عليه دخول أراضيه.

فاتجه صياد النساء إلى القدس حيث له هناك أصدقاء ومريدون، واستقبله الصليبيون بالترحاب، وكان ملكهم "أموري" في ذلك الوقت منهمكًا في حملته العسكرية على مصر، وعندما عاد الملك إلى عاصمة دولته، أدرك أن بقاء القائد البيزنطي تحت رعايته قد يكون في مصلحته، نظرًا للخصومة المستحكمة بين ملك الإفرنج وإمبراطور البيزنطيين، فأغدق أموري على أندرو نيكوس المال والعطايا، وأقطعه ولاية بيروت في جبال لبنان..

لكن الرجل لم يكن ممن يحفظون الجميل ويقابلون العطف بالوفاء، فقد مر في طريقه إلى بيروت على مدينة عكا حيث وقع نظره على صاحبة ذلك الموقع الحصين، الأميرة "تيودورا" البيزنطية، أرملة ملك أورشليم السابق "بلدوين الثالث" وهي مثل "فيليبا" جميلة ساحرة، لم تتجاوز الثانية والعشرين من العمر.

زارها أندرو نيكوس مرة أخرى في مقر إمارتها، وردت له تيودورا الزيارة في بيروت، حيث كاشفها بحبه.

ومثلت على مسرح بيروت الرواية التي أسدل الستار على آخر فصولها في أنطاكية قبل ذلك ببضعة شهور.

ونفذ صبر الإمبراطور فقرر الالتجاء إلى العنف مع ابن عمه الذي ألحقت

أعماله العار بالأسرة المالكة، فأصدر أوامره إلى زبانيته بأن يأتوه بأندرو نيكوس حيًّا، بعد أن يفقئوا عينيه!

وكتب إمبراطور بيزنطة إلى ملك الإفرنج يطلب منه طرد ابن عمه من أراضيه، ولم يشأ "أموري" أن يثير بينه وبين جاره القوي حربًا من أجل ذلك، فأرسل يدعو أندرو نيكوس إلى الرحيل من تلقاء نفسه.

وخرج أمير بيروت من قصره، بعد أن تخلى عن الإمارة، وخرجت في أثره تيودورا أميرة عكا، والتقى الاثنان في سهل البقاع، وواصلا السير إلى دمشق حيث نزلا على صاحبها "نور الدين محمود" وطلبا حمايته، فأجارهما هذا الأمير عملًا بتقاليد الضيافة الشرقية.

ولكنهما لم يمكثا طويلًا في دمشق، فذهبا إلى "حران" وهي أيضا من أملاك "نور الدين"، وهناك وضعت تيودورا طفلًا حملته معها إلى بغداد، حيث استجار الهاربان بالخليفة "يوسف المستنجد بالله" العباسي..

وظل أندرو نيكوس و تيودورا يتنقلان من إمارة إلى إمارة، ومن حصن إلى حصن، بين بغداد وماردين وارضروم، فكان الأمراء المسلمون يفتحون لهما أبواب قصورهم ويضيفونهما أيامًا أو أسابيع، ثم يفهمونهما أن بقاءهما في أرضهم غير مرغوب فيه، لأن الإمبراطور "مانوئيل كومنين" واسع السلطة طويل الباع علاوة على أنه صديق، وليس عدوًّا ولا يغرب أحد من أولئك الأمراء في معاداته إكرامًا لقائد من قواده، وتسترًا على من خرجا على الأهل والتقاليد.

ضاقت الدنيا في وجه أندرو نيكوس، وسدت في طريقه سبل الهرب وموارد الرزق، فانقلب إلى لص سفاح، وجعل يسطو على المارة في الطريق المؤدية إلى

حدود الإمبراطورية، بل جمع حوله عصابة من قطاع الطرق، وراح يشن الغارة تلو الغارة على المزارع التي وراء تلك الحدود، وينهب محتوياتها ويسلب سكانها فكتب الإمبراطور إلى حاكم طاربزون، "نيكفوروس باليولوغوس" يقول "إما رأسه وإما رأسك إما أن ترسله إلي مكبلًا بالسلاسل، وغما أن تكبل بها نفسك وتأتيني صاغرًا ذليلًا! فالحاكم الذي يعجز عن القضاء على لص، قاطع طريق، ليس جديرًا بالبقاء في منصبه!".

تلقى نيكفوروس هذه الرسالة الملكية فكانت له بمثابة صفعة أدمت كرامته، وأقسم ألا يذوق الراحة قبل أن يغسل عارها بالقبض على القائد المتمرد، وكان يعلم أن دون هذه الأمنية أهوالًا ومصاعب...

ولكنه وضع خطة ضمنت له النجاح، وبدل أن يطارد "أندرو نيكوس" ورجاله، أقام كمينًا للأميرة العاشقة تيودورا، ونجح الكمين فعاد إليه رجاله يسوقون أمامهم المرأة موثقة اليدين!

وكتب حاكم طرابزون إلى الإمبراطور يقول: "إنني أبعث إليك الآن بالمرأة حية، وسأتبعها قريبًا الرجل حيًّا أيضًا!".

وعلم أندرو نيكوس بما حدث فضاع رشده!

إنه لا يملك قوة كافية لمهاجمة طرابزون وإنقاذ عشيقته، أو إرغام ابن عمه على الصفح عنها وعنه، فما العمل؟

إنه شريد طريد، يتهرب منه الناس لأنهم يخشون بطش الإمبراطور ويسد الأمراء والحكام درفة أبوابهم محافظة على ما بينهم وبين العاهل البيزنطي من علاقات طيبة، وهو يفتقر في آن واحد إلى المال والرجال والسلاح.

فالإمبراطور هو الغالب، إن لم يكن اليوم فغدًا أو بعد غد!

إذن، علام العناد والاسترسال في الغواية والتشرد والعصيان؟

تصفح أندرو نيكوس حياته، فإذا بها مزيج من العظمة والانحطاط، من المجد والبؤس، من الشرف والعار.

وأخذ رأسه بين يديه، وأصغى إلى دقات قلبه، وأدرك ما لم يكن يعلمه من قبل: إنه يحب! لقد لعب بالحب في سابق الأيام، ولكنه الآن فريسة ذلك الحب! لقد غرر بنساء الإمبراطورية الجميلات، وخدعهن وجعلهن في يده دمى للتسلية واللهو والتمتع بالملاذ... ولكنه اليوم ينقلب ضحية بعد أن كانت النساء ضحاياه.

وبدافع نفساني ذهب "أندرو نيكوس كومنين" إلى قصر "نيكفوروس باليوغوس" حاكم طرابزون، ورفع خوذته الفولاذية، وألقى بها على الأرض أمام غريمه، وأعلن خضوعه واستسلامه تاركًا لابن عمه الإمبراطور "مانوئيل كوميني" أن يفعل به ما يشاء على شرط ألا يفرق بينه وبين المرأة التي أحب!

وأمر الإمبراطور بأن يطرح الأسير في غياهب السجون!

السلطان نيلوفر

من حفر حفرة لأخيه، قد يقع فيها! ومن كاد لجاره قد يرتد الكيد إلى نحره!

في أواخر القرن السابع للهجرة الموافق للقرن الثالث عشر للميلاد سارت دولة السلجوقيين الترك إلى الانحلال باطراد.

وتقاسم أملاك الدولة ومرافقها أمراء من أتباع السلاطين، فجعلوا يستقلون الواحد بعد الآخر بالمقاطعات الجبلية والقلاع الحصينة، على حين كان أمراء من الروم الشرقيين يفعلون مثلهم، من ناحية أخرى، فيستقلون بالمقاطعات والقلاع التابعة للدولة البيزنطية: هؤلاء في شمالي الأناضول وغربيته، وأولئك في جنوبيه وشرقيه.

وفي سنة ١٢٨١ للميلاد، – الموافقة لسنة ٦٧٩ للهجرة – تولى "عثمان خان"، ابن "أرطغرول خان"، قيادة فريق من القبائل التركية، خلفًا لأبيه الذي أقعدته الشيخوخة، وجعل يتلمس مواضع الضعف عند جيرانه، سواء أكانوا من المسلمين الشرقيين أم من الروم المسيحين، ليوسع أطراف إمارته على حسابهم، وقد وأتاه حظه. وساعده نبوغه، فكتب له أن يكون مؤسس دولة ومنشئ أمة، وأن يطلق اسمه على أمله وعلى الدولة معًا، فتعرف سلالته ويعرف قومه باسم "بني عثمان" أو "العثمانيين".

وكان لعثمان بن أرطغرول جار رومي يدعى "كيبي ميخالي" وقد توثقت

عرى الألفة والصداقة بين الجارين، فتحولت إلى محالفة عقدت بينهما، فأقسم كل منهما يمين الوفاء والإخلاص للآخر، واتفقا على توحيد جهودهما ومساعيهما للاستيلاء على أملاك جيرانهما الآخرين، وما مرت بضعة أعوام على ذلك الحلف الوثيق، حتى اعتنق "كيبي ميخالي" الدين الإسلامي، وانضم إلى جماعة صديقه، وعرف منذ ذلك الوقت باسم "ميخالو غلي" وهو جد أسرة قامت في فجر التاريخ العثماني بدور كبير وظل أبناؤها يشغلون أرفع المناصب في عهد السلاطين لبضعة أجيال.

وكان لعثمان بن أرطغرول صديق آخر من الأمراء الروم يحتل قلعة "بيلوكوما" – أو بلدجك – ووثق به عثمان إلى حد أنه كان يلتمسه على أسراره، ويودع عنده أمواله وكنوزه كلما خرج على رأس قومه إلى الحرب والغزو.

ولكن بقية الأمراء والإقطاعيين كانوا ينظرون إلى عثمان وصديقيه بعين القلق والحسد، ويخشون بطشهم ويحتاطون لكبح جماحهم، ومن بين هؤلاء صاحب قلعة "انجلوكوما" الرومي، الذي جعل يسطو على القبائل التركية ويسوق أمامه مواشيها ويقطع الطريق على الآمنين من زراعيها ورعاتها، حتى عول عثمان على الاقتصاص منه، وشد أزره صديقاه فنشبت معركة أولى بين الفريقين، في الطريق المؤدية من كوتاهية إلى بورصة، في سنة ١٢٨٥ ميلادية، الموافقة لسنة ٦٨٤ للهجرة، تبعتها معركة ثانية على مقربة من أجلوكوما نفسها، وأسفرت المعركتان عن فوز عثمان وقومه، فاستولوا على بضعة حصون، منها حصن "قره حصار" الذي اتخذه عثمان منذ ذلك الوقت مقرًّا له ولذريته من بعده..

ومات ارطغرول في سنة ١٢٨٨ ميلادية الموافقة لسنة ٦٨٧ للهجرة، هادئ البال مطمئنًا على مستقبل أمته، تاركًا لابنه عثمان مهمة تأدية الرسالة إلى نهايتها، وقرر الابن أن يحمل لقبًا جديدًا، رمزًا لسلطته وعنوانًا لاستقلاله، فاختار لنفسه لقب "بادشاه" وأصبح يعرف بسلطان العثمانيين.

ظلت أسرة ميخالوغلي على ولائها للسلطان وقرنت مصيرها بمصيره، ولكن الصديق الثاني، صاحب بلدجك، لم يبق من ناحيته مخلصًا وفيًّا، فقد داخله الحسد من الأمير التركي الذي لم تعد مطامعه تقف عند حد، فتشاور الرومي مع بني قومه، وتآمروا جميعًا على الأمة العثمانية الناشئة وزعيمها الطموح، واشترك في تلك المؤامرة سبعة من الأمراء وأصحاب القلاع من الروم، وتولى وضع الخطة وإدارة دفة تنفيذها صاحب بلدجك، الصديق الخائن، وصاحب انجلوكوما، العدو القديم المهزوم، هذا لطلب الثأر، وذاك لإرواء حسده، وقد يكون الصديق الحسود أحيانًا أشد خطرًا من العدو الحاقد!

وأقبل على أسوار "قره حصار" ذات يوم رسول من صاحب قلعة "يار حصار" – وهو أحد المتآمرين – حاملًا إلى البادشاه دعوة من سيده، يقول فيها: "لقد عولنا بإذن الله على عقد قراننا بعد أسبوعين، ووقع اختيارنا على ابنة جاركم وحليفكم صاحب بلدجك.

فهل البادشاه أن يشرف قلعتنا بزيارته، ويشاركنا في أفراحنا، إن في هذا لمنتهى السعادة لنا، ولفألًا حسنًا للعروسين!".

قبل عثمان الدعوة شاكرًا، وأوفد من ناحيته رسولًا إلى صديقه "كيسي ميخالو غلي" فأسرع هذا الصديق إليه وأطلعه على السر الذي كان عثمان

يجهله. والذي عرفه الرومي من صنائعه وجواسيسه المتنبئين في قلاع الأناضول وحصونه.

قال كيسي ميخالو غلي لعثمان:

- لا شك عندي في أن القوم يتآمرون عليك، ولا شك عندي في أنهم عازمون على الإيقاع بك والتخلص منك غدرًا، بعد أن ثبت لديهم أنهم عاجزون عن منازلتك وقهرك في الميادين، فاحذر أيها الصديق، ولا تغرنك الظواهر، فالبواطن غير ما ترى وغير ما تسمع!

ووضع الصديقان معًا خطة معاكسة، لإحباط المؤامرة ورد كيد الكائدين إلى نحورهم.

وأرسل عثمان بن أرطغرول إلى جاره صاحب بلدجك يقول: "لقد قررت أن ألبي الدعوة التي وجهها إلي صهرك المقبل صاحب يار حصار، مغتبطًا بهذه الفرصة السانحة؛ لأعبر لك عن سروري بزواج ابنتك التي أعرفها وأقر أنها تحاكي القمر بهاء والشمس ضياء، وأنا وقومي نتمنى للعروسين الهناء كله في مستقبل الأيام، ولكنني عازم على الخروج بعد ذلك إلى رحلة طويلة، فاستأذنك أيها الصديق الكريم – شأني معك اليوم كشأني معك بالأمس – في أن أترك أموالي وكنوزي أمانة في عنقك، ووديعة في حصنك، وسأرسل إليك ذلك كله مع جماعة من النساء، يحملنه إلى بلدجك قبل حفلة العروس بيوم واحد، وإلى اللقاء عند صهرك العزيز في يار حصار إن شاء الله!".

وفي اليوم المحدد وصلت إلى قلعة بلدجك قافلة من البغال والخيول المحملة بالأثقال، نقودها أربعون امرأة من نساء العثمانيين، جميعهن مبرقعات

متسربلات بأثوابهن السوداء، ففتحت لهن أبواب القلعة، وخصصت لهن فيها القاعات الفسيحة، فأقمن فيها بجانب الصناديق والأكياس الحاوية كل ما يملك عثمان من مال وجواهر وأسلحة مرصعة وأقمشة مزخرفة وتحف ثمينة.

وفي اليوم التالي خرج صاحب بلدجك من قلعته في موكب تتوسطه العروس ابنته وقد امتطت صهوة جواد أصيل، واتجه الموكب إلى سهل منبسط بجوار القلعة، حيث أعدت العدة لإقامة حفلة العرس، فنصبت الخيام وعلقت المصابيح في الأشجار ونحرت الذبائح ومدت الموائد، وحيث كان مقررًا أن يصل العريس بموكبه في اليوم ذاته.

وما كاد موكب العروس يبتعد عن القلعة حتى علا من داخلها الصياح، واندلعت في جوانبها ألسنة النيران، وانعقد فوقها الدخان كالسحاب!

لم تكن النساء اللواتي حملن وديعة عثمان إلى قلعة بلدجك غير فريق من الرجال الأقوياء الأشداء، تنكروا وراء البراقع والجلاليب السوداء، ثم اغتنموا فرصة خلو القلعة من حماتها فانقضوا على الخدم، وأوثقهم وأضرموا النار في جوانب القلعة وتم لهم الاستيلاء عليها قبل أن يصحو صاحبها ورجاله من دهشتهم! حتى إذا ما كروا عائدين إلى القلعة للدفاع عنها، داهمهم رجال عثمان المتنبئون في الطريق، المتربصون بين الصخور والأشجار، ففتكوا بهم فتكًا ذريعًا، على حين كان عثمان نفسه، على رأس قوة أخرى من فرسانه، يفاجئ العريس القادم إلى السهل، ويقطع رأسه بيده، ويشتت موكبه في الجبال والحقول!

أما العروس فقد وقعت في قبضة "كبسي ميخالو غلي" وجماعته، فاقتادوها أمامهم إلى البادشاه...

وقعت قلعة بلدجك في يد عثمان وأسر صاحبها الخائن، ووقعت في يده أيضا قلعة "يار حصار" بعد مصرع صاحبها الغادر، فضم عثمان القلعتين إلى أملاكه، واتسعت بهذا الضم حدود سلطنته...

أما العروس السبية، فقد أحاطها البادشاه بالإكرام والإجلال، وأحلها ضيفة في حصن قره حصار، وعوض عليها ما حل بها من شقاء بأن أعدها زوجة لابنه الثاني، الذي أعده ليرث الملك من بعده، دون أخيه الأكبر.

تلك هي "السلطانة نيلوفر" زوجة السلطان أرخان، وأم السلطان مراد الأول، وقد جلست على عرش آل عثمان مع زوجها أرخان، بعد وفاة السلطان عثمان سنة ١٣٢٦ للميلاد الموافقة لسنة ٧٢٦ للهجرة – بالغًا من العمر سبعة وستين عامًا.

أما أورخان، فقد تولى السلطنة بعد أبيه وهو في الخامسة والأربعين، وملك أربعة وثلاثين عامًا، ومات سنة ١٣٦٠ وهو الذي أنشأ غرفة "الانكشارية" الشهيرة، وقد كانت له زوجته الرومية نيلوفر خير مرشدة وخير رفيقة.

وفاء السلطانة

كان عليها أن تختار بين تأييد زوجها السلطان، أو والدها الإمبراطور، فأثرت الزوج على الأب!

قبائل الترك العثمانيين تتأهب في ذلك الوقف لاجتياز المضايق والانقضاض على ممتلكات الإمبراطورية الرومانية الشرقية في أوربا.

ولكن هذا الخطر الداهم لم يحمل الروم المتناحرين المتخاذلين على نبذ خصوماتهم، وتوحيد كلمتهم وجمع صفوفهم، لحد الغارة الآسيوية عن إمبراطوراتهم المتفككة الأوصال، بل راح بعضهم يخطب ود ذلك العدو المشترك، ويتحالف معه على بني قومه، فساعد ذلك الانقسام بين طوائف الروم وأحزابهم على بسط سلطان العثمانيين وتوسيع رقعتهم.

ففي سنة ١٣٢٦ للميلاد – الموافقة لسنة ٧٢٦ للهجرة – تم استيلاء الأمير "أرخان" العثماني على مدينة "بروسة". فمات أبوه "عثمان" في السنة ذاتها قرير العين، ودفن في هذه المدينة العظيمة بعد أن جعلها عاصمة لملكه ومقرًّا لعرشه.

وخلفه في حكم العثمانيين ابنه "أرخان". وهو في السادسة والأربعين من العمر، فواصل فتوح أبيه، وكان أول من وطأة قدماه أرض أوربا من قواد الأمة الفتية الغازية.

مطلع "أرخان" إلى إمبراطورية الروم فألقاها طعمة للفوضى والحرب الأهلية والفسق والفجور، وجعل يرسم خطة بعيدة المدى لاستغلال هذه الحالة،

وساعدته الظروف وخدمته المصادفات إلى أبعد مما كان يأمل وينتظر. فبعد أن تطاحن الروم فيما بينهم بضعة أعوام، آل عرش دولتهم إلى الإمبراطور الفتي "جان باليولوغوس" وتولى الوصاية على ذلك الإمبراطور كبير أمناء القصر "جان كنتاكوزين" أدهى دهاة عصره، وأغنى الأغنياء في ذلك العهد، إذ كان يملك مزارع واسعة لا عداد لها، عليها أربعة آلاف ثور، وثلاثة آلاف فرس، وخمسمائة بغل. وثلاثمائة جمل، وخمسة آلاف بقرة حلوب، وخمسون ألف خنزير، وسبعون ألف رأس من الغنم، وعشرات الآلاف من الطيور!

ودب الحسد في قلب الإمبراطورة الوالدة "آن دي سانوا" من ذلك الثري القوي الذي سلبها سلطانها على ابنها، فحاولت أن تنتزع منه الوصاية على العرش، وكان ذلك سببًا لإثارة نقمته، وقيام فكرة خلع الإمبراطور في رأسه، وتحولت الفكرة إلى رغبة، والرغبة إلى عزم عول الرجل على المضي فيه، فتآمر على العرش وتأهب لوضع التاج على رأسه.

وشطرت الإمبراطورية إلى شطرين، وانقسم الشعب إلى فريقين!

وأسرعت "آن دي سانوا" أم الإمبراطور "باليولونجوس" القاصر إلى طلب المعونة من "أرخان" سلطان العثمانيين، فوعدها بأن يشد أزر ابنها ضد كبير أمنائه مغتصب العرش منه، ولكن، قبل أن تتحقق أمنية الإمبراطورة الوالدة، كان "كنتاكوزين" من ناحيته قد أسرع أيضًا إلى "أرخان"، وعرض عليه محالفة بين العثمانيين والفريق المناصر له من الروم، ووضع بين يديه كومة من الأكياس المملوءة ذهبًا، ثم أشار إلى أحد أتباعه – وكان ملثمًا – وقال السلطان العثماني: "وقد جئتك أيها السيد المطاع والقائد المغوار، والجار

الكريم بدليل ملموس يثبت لك حسن نيتي، وصدق إخلاصي، ورغبتي الأكيدة في أن تكون هذه المحالفة التي أعرضها عليك، رباطًا وثيقًا بيننا، لا تفصم عراه الأيام مهما تحمل في طياتها من حوادث جسام!".

وتطلع السلطان إلى الملثم فإذا بالخمار يسقط وينحسر عن وجه منير يحاكي البدر بهاء والصباح ثناء، وإذا بالملثم فتاة لم تقع عين السلطان من قبل على أجمل منها، ولم يتخيل قامة ممشوقة مثل قامتها، ونظرات ساحرة مثل نظراتها! وتكلمت الحسناء بصوت لم تطابق مسامع السلطان من قبل رنة أرق من رنته وأعذب وقعًا منها وقالت:

- أيكفيك الدليل على حسن نية أبي أيها المولى الجديد؟

وصاح "أرخان" وقد لمعت عيناه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة تنم عن الرضى والسرور:

- يكفيني الدليل! وإنني أبسط يدي إلى الفريق المناصر لكنتاكوزين، وأتعهد له بأن أضع أبنائي وفرساني في خدمة الهدف الذي أصبح الآن مشتركًا بيننا!

وخاطب "كنتاكوزين" ابنته قائلًا:

- تيودورا.. أنت يا ابنتي منذ هذه الساعة ملك لصديقي وحليفي أرخان سلطان العثمانيين، عسى الله أن يجعلك سعيدة في كنفه، وأن يحقق له ما يصبو إليه من آمال وأماني وأغراض!

تغلب دهاء الرجل على مكر المرأة. وبدل أن يصغي "أرخان" إلى نداء

الإمبراطورة الوالدة "آن دي سافوا" ويحالف ابنها ويساعده على الاحتفاظ بعرشه، آثر الإصغاء إلى نداء عدوها "جان كنتاكوزين" وحالفه وتعهد بأن يساعده على اغتصاب العرش من "باليو أوغوس" الشاب. ودعا "أرخان" ولديه وقائدي جيشه "سليمان" و"مراد" وأطلعهما على ما تم الاتفاق عليه بينه وبين الرومي المغتصبة، وقال في ختام حديثه:

- لقد فعلت هذا لا حبًّا لحليفنا الجديد ولا كرهًا لعدوه، بل لأن فيه مصلحة قومنا من جميع الوجوه، فالرجل ثائر على ملكيه وفي هذا ما يزيد إمبراطورية الروم ضعفًا وتفككًا، ويفسح لنا المجال التقدم والتوسع على حسابها. وقد دفع لنا هذا الحليف الذي لم يكن في الحسبان ما يكفي من المال لسد حاجاتنا منه لبضعة أعوام، فضلًا عن المصاهرة التي جاءت بمثابة توقيع على صلك التحالف، فأصبحت ابنته تيودورا زوجة لي.

يعيدني شبابها إلى عهد الشباب، وتبعث نضارتها بعض الحرارة في عروقي!

فقال سليمان ومراد:

- حسنا فعلت! ونحن في انتظار أوامرك للسير إلى حيث تريد تأييدًا لحليفنا الجديد، وصهرنا العتيد!

كان ذلك الحادث أول حادث من نوعه بين الروم والترك، فإن "تيودورا" ابنة "جان كنتاكوزين" أول فتاة رومية تزوجها سلطان عثماني، وقد تم الزواج في سنة ١٣٤٠ للميلاد – الموافقة لسنة ٧٤١ للهجرة، وكان السلطان "أرخان" في الستين من العمر.

كان "كنتاكوزين" بعد زيارته الأولى للسلطان، قد عاد إلى ضفة المضيق الأوروبية، تصحبه ابنته ملثمة كما جاءت معه إلى الضفة الآسيوية.

على أن يبعث "أرخان" بعد أسبوع من ذلك اليوم، وفدًا من قبله يجيء بالعروس إلى زوجها في موكب لائق بها – واستقبل الروم وفد السلطان في خيام من الدمقسي والحرير، ورحب به "كنتاكوزين" وزوجته "ايرينا" وعاد الوفد من حيث أتى، ومعه السلطانة الرومية الجديدة "تيودورا"، وهدايا لا تعد ولا تحصى، وخمسمائة من العبيد والجواري، وبضع عشرات من الخصيان اختارهم "كنتاكوزين" بنفسه، ومنذ ذلك الوقت أخذ الترك عن الروم عادة اقتناء الخصيان في قصورهم، ولم تكن هذه العادة قد انتشرت بينهم من قبل!

وفي السنة التالية، كان "كنتاكوزين" قد تمكن من السلطة وتبوأ عرش القياصرة في بيزنطة، بفضل المساعدة التي تلقاها من زوج ابنته السلطان العثماني، واحتفظ هذا الإمبراطور بالتاج ثلاث عشرة سنة، كانت مفعمة بجلائل الأعمال، في ميادين السياسة والحرب والعمل والأدب.

فقد جمع "جان كنتاكوزين" في شخصه الداهية السايسي، والقائد المحنك، والعالم المطلع، والأديب الحصيف، وله مؤلفات في التاريخ واللاهوت والمقارنة بين الأديان وتحليل النظريات الفلسفية عند الأقدمين، كما أن له قصائد من الشعر الرائع في وصف الطبيعة والتغني بمحاسنها.

كان للسلطان "أرخان" ولدان آخران غير مراد وسليمان، ولم يحدث في السنوات العشرين التي قضتها "تيودورا" في كنف زوجها العثماني أن نشب خلاف بينها وبين أحد من الأبناء أو من رجال الحاشية أو من نساء الحريم

العثماني، فقد عاشت هذه الأميرة الرومية في ذلك الوسط الغريب عنها، وذلك الجو المختلف عن الجو الذي نشأت فيه عند قومها، في وئام مع الجميع، فأحبتها النساء بقدر ما احترمها الرجال.

وظلت وفيه لزوجها، محافظة على العهود التي قطعتها له، وظل "أرجان" من ناحيته أيضًا محافظًا على ما قطعه نحو زوجته الغريبة من عهود.

فقد أرادت "تيودورا" منذ اليوم الذي انتقلت فيه من قصر أبيها إلى مدينة بروسية، أن تقطع دابر كل خلاف، وترسم لنفسها ولزوجها خطة يسير عليها الاثنان، وينفذانها بأمانة وإخلاص..

قالت لأرجان: "لي رجاء أود أن أفضي به إلى مولاي أن يسمح بذلك، بل لي أكثر من رجاء واحد".

فأجاب أرخان: "أن كل رجاء تعبرين عنه يا تيودورا لهو بمثابة أمر تصدرينه في الحال نافذًا، تكلمي، وأرخان يصغي ويحقق لك ما تريدين!".

- أود البقاء على دين آبائي وأجدادي!
- ستبقين على دينك ولن أحاول إكراهك على الجحود به!
- وأود لو سمح مولاي بأن يقيم في المدينة وعلى مقربة من القصر، راهب رومي أشرف على تربيتي الدينية منذ نعومة أظافري، يدعى جاورجيوس.
- سنعطي جاورجيوس بيتا يقيم فيه على مقربة من القصر، ولك أن تقابليه متى شئت.

- وأود أن يأذن لي مولاي بالذهاب إلى والدي، في بيزنطة، لزيارتهما، والسؤال عنهما، والتزود ببركتهما، مرة في كل عام.
- بل مرة في كل شهر إذا أردت!

تلك هي كل الشروط التي تم الاتفاق عليها بين أرخان وزوجته، والتي لم يخل بها أحد الطرفين خلال عشرين عامًا.

وقد نشأ فيما بعد خلاف بين السلطان العثماني والإمبراطور والد زوجته، فانحازت تيودورا إلى زوجها السلطان وحاولت أن تعيد المياه إلى مجاريها بين العاهلين ففشلت، وظلت في خلال تلك المدة المضطربة تزور والديها وتعود إلى زوجها، بدون أن تخامرها فكرة الهروب، أو البقاء في بيزنطة بين أهلها وقومها.

وفي سنة ١٢٥٤، لم يعد في وسع "كنتاكوزين" الاحتفاظ بالعرش، بسبب ما اكتنفه من ثورات، وما أريق حوله من دماء، وما قاساه ذلك الإمبراطور العظيم من متاعب وأهوال، فنزل عن الملك لابنه الثائر عليه، واعتزل الحياة في دير مع زوجته الإمبراطورة ايرينا، وقضى بقية عمره الطويل منصرفًا إلى التقشف والعبادة، ومات في سنة ١٢٨٠ للميلاد.

أما أرخان فقد حزن حزنًا شديدًا على مصرع ابنه سليمان الذي قتل في الصيد، فأثر ذلك في صحته، وعجل موته، ففاضت روحه في الثمانين من العمر، وكانت كلماته الأخيرة موجهه إلى زوجته المحبوبة تيودورا، التي لفظ أنفاسه الأخيرة متكئًا على صدرها.

وخلفه على عرش آل عثمان السلطان مراد الأول وهو ابنه الثاني من

زوجته نيلوفر، أما تيودورا، فإنها لم ترزق منه أبناء، وقد احتجبت عن الأنظار بعد موت زوجها، وظل السلطان مراد الأول يحوطها بالإكرام والإجلال ويستشيرها في كثير من الشئون، ويغلب على الظن أنها ماتت قبل أبيها الإمبراطور الراهب، وأمها الإمبراطورة الراهبة.

خنجر في الأفق

تحققت الرؤيا، فانتصر السلطان في المعركة، ولكنه لم ينعم بلذة انتصاره!

الشمس وراء الهضاب المتتابعة الرابضة تجاه البحر، كقطع من الخراف الهائلة تجمدت في مكانها، وفي الوقت نفسه أطل الفارسان من أعلى هضبة منها على مدينة أدربانوبولس، القابعة على الشاطئ في حماية أسوارها المنيعة، والتفت أحد الفارسين إلى رفيقه، وقال مستبشرًا مسرورًا:

- الحمد لله! لقد بلغنا نهاية رحلتنا الشاقة بلا عناء، وكنت أخشى أن يدركنا الظلام قبل أن نصل إلى المدينة، فنضطر إلى قضاء الليل في هذا الوعر الموحش، الحمد لله!

فأجاب الفارس الآخر بصوت ناعم:

- إن الله يستجيب دعاءك دائما يا أبي، لأنك من أوليائه الصالحين!
- سننزل في بادئ الأمر ضيفين على مولانا السلطان، الذي أرسل يستقدمني من بروصة، ثم نبحث عن بيت نقيم فيه.
- إلا إذا أراد السلطان أن تصحبه في غزواته وفتوحه.
- سنفعل ما يأمرني به، فهو ولي نعمتي، وقد وضع في ثقته الغالية، مما آثار علي حسد الكثيرين من رفاقي وأخواني.

- وأنت جدير بهذه الثقة يا أبي! فكم من مرة أبعدت الخطر عن السلطان بصلواتك. وكم من مرة حذرته الأقدام على عمل أو الإحجام عن آخر، بما قرأته له في صحائف الغيب، وكم من مرة كان تفسيرك لحلم أو لرؤيا، مدعاة للدهشة والإعجاب، بما كان يتبعه من سير الحوادث وفاقًا لما ذهبت إليه من تفسير.

- هذا صحيح يا نعمة، وأرجو أن يوفقني الله دائمًا، ويشملني برعايته.

كان الفارس الآخر قد نزع العمامة التي لف بها رأسه، وأسدل طرفها على جزء من وجهه، فانطلقت شعور شقراء كثيفة من عقالها وتدفقت على كتفيه، فجعل نسيم البحر يداعبها ويعبث بها بلا ورع ولا وجل!

هذا الفارس امرأة في العقد الثالث من عمرها، ورفيقها شيخ جاوز الستين.

هو من بلاد العرب، وهي من بلاد الصرب، والاثنان في طريقهما إلى ادريانو بولس، المدينة التي نقل إليها السلطان العثماني مراد الأول مقره، واتخذها عاصمة جديدة لملكه، وأطلق عليها اسم "أدرنة".

فما الذي جمع بين العربي والصربية في أرض تركية؟

كان "إبراهيم البصري" في شبابه مغامرًا شديدًا الميل إلى اقتحام المخاطر وركوب الأهوال، وقد رحل عن موطنه "البصرة" وطاف في الإمارات والأقاليم المتناثرة حول البقية الباقية من الإمبراطورية البيزنطية، وحط في النهاية رحالة في مدينة "بروصة" عاصمة السلطان أورخان، حيث انصرف إلى أعمال البر والتقوى، وزهد في الدنيا وعدل عن المغامرة.

فذاع صيته بين الناس، وأحب العثمانيون – وعلى الخصوص الجنود منهم – ذلك العربي الذي يجيد قراءة الكف، واستطلاع الغيب، وتفسير الأحلام، وإسداء النصائح والإرشادات في كل شأن من شئون الدين والدنيا...

وتزوج إبراهيم البصري امرأة تركية رزق منها ولدين، ما شبا عن الطوق حتى التحقا بفرقة من فرق الفرسان، لأخذ نصيبهما من المعارك التي كان العثمانيون يخوضون غمارها بلا انقطاع...

وكان مراد الأول وقد اعتلى العرش في سنة ١٣٦٠ للميلاد – الموافقة لسنة ٧٦١ للهجرة – واستأنف الحرب حيث تركها أبوه أورخان، وواصل الغزو والفتح، فاستولى على أدريانو بولس وشيد فيها قصرًا فخمًا، وشيد تجاه القصر مسجدًا يحمل اسمه، وأخمد فتنة أثارها أحد أبنائه، وأحرز سلسلة من الانتصارات على الإمبراطور باليولوغوس البيزنطي، وأمراء صربيا وبغاريا وغيرهما من الأقطار، ولم يهمل الإنشاءات العمرانية في فترات السلم والهدوء، فأحبه شعبه، ورأى فيه خلف لخير سلف، في مطلع تاريخ الأمة العثمانية.

وفي إحدى المواقع التي خاض السلطان غمارها ضد الصربيين، وكتب فيها النصر لجيشه، عاد العثمانيون بأكوام من الأسلاب وعدد لا يحصى من الأسرى والسبايا، وفي تلك المعركة قتل سعد بن إبراهيم البصري الأصغر، ونجا مسعود الأبن الأكبر، ورجع إلى أبيه ومعه من المال الشيء الكثير، وفتاة صربية تحاكي البدر بهاء والغزال خفة ورشاقة.

كانت الفتاة في صحبة أخيها "سيميونفتش" الذي لم يحاول إنقاذها من

الوقوع في الأسر، بل آثر الفرار على الدفاع عنها، ونجا بحياته تاركًا حياة أخته تحت رحمة الأقدار، فحنقت الأخت على أخيها، وما وصلت إلى بيت الجندي الذي سباها، ورأت والده المتلهف إلى لقائه، وشاهدت بكاء ذلك الوالد على ابنه الآخر الذي سقط في الميدان، حتى ركنت إلى تلك الأسرة بالرغم من اختلاف البيئة والدين والعادات، واعتزمت الاستسلام لما كتب لها.

وأحاطها إبراهيم البصري وابنه بالإكرام، ولم تمتد إليها أيديهما بسوء، بل فاتحها الشاب برغبته في اتخاذها زوجة حليلة له، فقبلت الفتاة شاكرة، وخيل إليها أن ما ظنته فاتحة بؤس وشقاء، سيكون فاتحة خير وهناء.

ولكن الزوج خرج ذات يوم إلى الصيد فهاجمه ذئب مسعور، وعضه في ذراعه عضة أسفرت عن موته في غمرة من الألم والعذاب، قبل أن ينقضي الشهر الثالث على زواجه!

وبقيت الصربية وحدها مع الوالد الحزين، فحاطها الرجل بكل ما في صدره من عواطف النبل والشهامة، وأطلق عليها اسم "نعمة" قائلًا: إن وجودها بالقرب منه وتحت سقف بيته نعمة من الله، لأنه عز وجل قد أرسلها إليه كي لا يحرم في وحشته صديقًا يواسيه، وعشيرًا بسليه، بعد مصرع سعد ومسعود!

وعاش الاثنان معًا في بروصة، الوالد الحزين والزوجة الثكلى، هي تتولى شئون البيت، وهو يتفرغ للعبادة ومحاولة تمزيق الحجب عن أسرار الغيب وما يخبئه الغد من حوادث ومفاجئات.

وكان السلطان مراد الأول يستدعيه إلى قصره، كلما هبط العاصمة القديمة، وأحيانًا يزوره في بيته الصغير، لطلب دعائه، أو الاستنارة برأيه،

واشتد تعلق السلطان به، والعطف عليه، فدعاه إلى الرحيل عن بروصة والإقامة في أدرنه. ولكن الشيخ العربي فضل البقاء في المدينة التي عاش فيها، لأن ذكرياته حية فيها، ولأن أرضها تضم رفات ابنه الأكبر، بعد أن عبثت وحوش البر وكواسر الجو بأشلاء ابنه الصغير في جبال البلقان.

وتوالت الأعمال الخارقة التي قام بها إبراهيم، فعاد مراد إلى الإلحاح عليه بأن يغادر بروصة، ويوافيه إلى أدرنة، ودعم الحاجة بالرجاء قام يجد الشيخ العربي بدا من إجابة مولاه إلى رغبته، فوزع محتويات بيته على المعوزين، وودع أصدقاءه، ونحر الذبائح على قبر والده، وانطلق على صهوة جواده، وبرفقته نعمة، ووجه الاثنين مدينة أدرنة.

وحل الشيخ وزوجة ابنه ضيفين على السلطان مراد الأول، في قصره المشرف على البحر الأسود.

مرت فترة من الزمن خيم فيها السلم على ربوع الدولة الفائرة، فواصل السلطان خلالها تنظيم شئون ملكه، وإنشاء فرق جديدة في جيشه اللجب، وعقد المعاهدات مع جيرانه توطئه للقضاء عليهم الواحد بعد الآخر، عندما تسنح الفرص.

وتكهن الشيخ العربي للسلطان بأنه سيتولى على عشرين مدينة من مدن الصرب والبلغار فاستولى عليها، وبأنه سيبسط سلطانه على خمس إمارات في أوربا وآسيا فتحقق التكهن، وقال السلطان للشيخ ذات يوم أنه رأى في المنام غيمة حمراء تهبط على قصره، ففسر إبراهيم البصري هذا الحلم بأنه إلهام من السماء ليتخذ السلطان اللون الأحمر علمًا لأمته.

فنفذ مراد النصيحة وجعل الأحمر لونًا للعلم العثماني، وقرأ العراف العربي في كف الأمير بايزيد بن السلطان مراد، أن الشاب سيقود الجند في معركة ينقض فيها كالصاعقة على العدو ويبيده بسرعة البرق، فحدث ما توقعه إبراهيم، وفتك بايزيد بجيش البلقانيين في معركة أطلق فيها عليه لقب "البرق" – بيلدريم – الذي ظل يلازمه طول حياته..

وشعر البلقانيون بأن كيانهم مهدد، فتحرشوا بجيرانهم مرة أخرى، وأرسل السلطان خيرة قواده للاقتصاص منهم، ولكن الخطر تفاقم، وما لبث مراد أن أدرك مدى ذلك الخطر، عندما بلغه أن أمير الصرب "لازاروس" قد جمع حوله حلفًا من أمراء البوسنة وألبانيا والهرسك وبلغاريا وهنغاريا وبولونيا وغيرهم، وأن المتحالفين يتأهبون للانقضاض على حدود السلطنة من كل صوب.

فعول مراد الأول على الذهاب لملاقاة العدو قبل أن يترك له فرصة لاستكمال التأهب، وزحف إلى الأمام، نحو سهول "كاسوفا" حيث كان لازاروس وحلفاؤه يجمعون جموعهم.

وبات الناس في أدرنة يرقبون الأخبار ويدعون لجنودهم بالنصر، وفي ذلك الظرف العصيب، وفي إحدى الليالي المظلمة، حيث كان الحراس ينتظرون باستمرار وصول الرسل الواحد بعد الآخر حاملين أنباء الزحف، وفي البيت الصغير الذي كان إبراهيم البصري يقيم فيه مع نعمة زوجة ابنه، وقفت المرأة في النافذة، أمام الأفق البعيد، تسبح في أفكارها، تاركة الشيخ التقي الورع، من ناحيته، يسبح في تأملاته، ودعواته، وصلواته.

وغلبها النعاس فأغمضت عينيها، ثم خيل إليها أنها بين الحلم واليقظة، وأن شيئًا يلمع أمام عينيها، هناك في الأفق البعيد الذي كانت تشخص إليه بالبصر، من خلال النافذة؟

- أبي! أبي! تعال. تعال.
- ما بك يا نعمة؟ أخائفة أنت؟

وجلست المرأة القرفصاء وقد عرتها الرعشة وعلاها الشحوب:

- أبي. أبي. لقد رأيت حلمًا، لا ... ليس حلمًا، بل رؤيا. نعم، لم أكن بعد قد استغرقت في النوم، ولكنني لم أكن مستيقظة، كنت بين الحالتين، فرأيت هناك، في الأفق، خنجرًا هائل الحجم يلمع في الظلام. لم يتحرك، ثم يقترب زاحفًا فوق الأمواج، وكلما زاد اقترابه، صغر حجمه بدل من أن يكبر، ودخل الخنجر إلى القصر من النافذة، من نافذة مولانا السلطان، واستقر على قدميه!

سكتت الفتاة، ولكنها ظلت تلهث وترتعش، فربت الشيخ على كتفها، وقال بلهجة ملؤها الحنان:

- لا تجزعي! فما الداعي إلى الجزع؟ إنها رؤيا، سنحاول أن نجد لها تفسيرًا، كما وجدنا لغيرها من قبل... وسنحول ما فيها من نذير، لمصلحة سيدنا مراد الأول، الذاهب في هذه الساعة إلى القتال!

في سهل كاسوفا، وقف السلطان مراد الأول بين رجال حاشيته وقواد جيشه، يلقى نظرة شاملة على ذلك المكان الذي اختاره الحلفاء البلقانيون

مسرحا لمعركة الغد، ورتبوا فيه جحافلهم الجرارة استعدادًا للجولة الفاصلة بينهم وبين العثمانيين، وقبل السلطان التحدي بالرغم من قلة عدد جيشه بالنسبة إلى جيش أعدائه، وبالرغم مما كان يخامره من قلق بسبب حلم أزعجه في الليلة الماضية وقض مضجعه، فقد تراءى له، وهو نائم في خيمته، أن خنجرًا هوى على صدره، وراح يداعبه بنصله الحاد، فنهض من نومه مذعورًا متشائمًا، وكان على وشك أن يأمر جيشه بالانسحاب، وإرجاء المعركة إلى فرصة أخرى، ولكن كرامته أبت عليه أن يفعل ذلك، ويظهر أمام عدوه بمظهر الخائف المتهرب من النزال.

وبينما السلطان يصدر أوامره الأخيرة، ويحدد لأعوانه موقع كل منهم ومهمته في القتال، إذا بضوضاء في سفح التل الذي يشرف منه على السهل، وإذا برجال حرسه يقتربون وقد أحاطوا بامرأة تصيح طالبة المثول بين يدي مراد الأول، بجرأة وإلحاح.

لم تكن المرأة غير نعمة، التي قطعت المفاوز الشاسعة للوصول إلى مقر السلطان قبل فوات الوقت، وإبلاغه رسالة الشيخ العربي إبراهيم البصري العراف مفسر الأحلام.

عرفها السلطان من صوتها، وأمر بأن يفسح الحراس لها طريقًا فامتثلوا للأمر، وقبلت المرأة يد السلطان، وانتظرت رغبة مولاها في أن يصغى إلى رسالتها، وقال مراد:

- كيف حال إبراهيم يا نعمة؟ إنني في حاجة إليه اليوم، لأنني رأيت حلمًا يقلق بالي.

فأجابت المرأة، وقد ارتسمت على وجهها إمارات الدهشة:

- وأنت أيضًا يا مولاي؟ إنني أحمل إليك تفسير الرؤيا التي أقلقتني أنا في أدرنة!

- وماذا يقول إبراهيم؟ وما الرؤيا؟

وقصت المرأة على السلطان ما حدث لها في بيتها بأدرنة، أمام البحر، وأضافت قائلة:

- يقول إبراهيم البصري يا مولاي: لا تخف! ولا تحسب حسابًا لقوة العدو وعدد جيشه، فالنصر مكتوب لك في هذه المعركة، لا تتردد إذن في خوض غمارها، ولكن، احترس من عواقب النصر! لا خوف عليك من القتال، بل الخوف عليك من الغدر! سيلمع نصرك غدًا كما لمع الخنجر في الأفق، ولكن الخنجر قد انثنى منحنيًا على قدميك، فاحترس ممن ينحني عليهما بعد الآن!

سكتت المرأة، وجمد السلطان في مكانه مفكرًا، ثم التفت إلى أعوانه وقال:

- ما أغرب هذه المصادفة! خنجر يبدو لهذه المرأة في أفق أدرنة، وخنجر يهوي من سقف خيمتي في كاسوفا، لو كان إبراهيم البصري معنا لأنجدنا بتفسير الحلم الأخير، كما أنجدنا بتفسير الحلم الأول.. خنجر على القدمين، وخنجر على الصدر!

- لم ينبس أحد بكلمة حول السلطان، ولكنه ضحك ضحكة عالية وصاح بقواده:

– أيها الأبطال، غدًا، سنبادر العدو بالهجوم عليه، ولن ننتظر أن يصدمنا الصدمة الأولى، فاستعدوا: إن الذي يهمنا الآن هو الشطر الأول من تكهن البصري.

وصف مؤرخ عثماني معركة كاسوفا، التي دارت رحاها في منتصف شهر يونيو سنة ١٣٨٩ للميلاد، الموافقة لسنة ٧٩١ هجرية، بهذه العبارات: "كانت نصال السيوف وهاجة كحجارة الماس، فحولها الدم المهراق إلى قضبان من الياقوت الأحمر، وإلى ياقوت أحمر أيضًا تحولت أسنة الرماح، أما ميدان القتال، فقد تناثرت فيه الرؤوس المقطوعة والعقبات القائمة والعمائم الزاهية، فاستحال إلى حقل تكسوه أزهار السوسن المختلفة الأشكال والألوان!"

وكان انتصار العثمانيين حادًّا فاصلًا، فقد سحق جيش الحلفاء سحقًا، وأبيدت فلوله الهائمة في أطراف الميدان ومنافذ الجبال.

وأحاط أقطاب الدولة بمولاهم بعد أن أصبح النصر في قبضة اليد، وراحوا يهنئونه ويهتفون بحياته، وفي غمرة الفرح هذه، أقبل فارس حربي على جواد أسود، رافعًا يديه علامة الاستسلام، وقال: إن لديه سرًّا يرغب في الإفضاء به إلى مراد الأول سلطان العثمانيين.

ولم يمانع السلطان في مقابلة الرجل، فترجل الصربي عن جواده، وقاده اثنان من رجال الحرس، إلى حيث كان مراد واقفًا تحت مظلة خضراء، فانحنى الرجل متظاهرًا بأنه يركع لتقبيل قدمي السلطان ولكنه في أسرع من لمح البصر، تناول خنجرا من كم ثوبه، وأغمد نصله في صدر مراد الأول، وقفز محاولًا الإفلات والهرب.

سقط السلطان على الأرض، والدم يسيل بغزارة من جرحه المميت، وسقط القاتل ممزقًا بسيوف الحرس!

غير أن مصرع مراد لم يكن له تأثير على سير الحوادث، فقد أصدر أوامره الأخيرة قبل أن يسلم الروح، ومن بينها إعدام الأمير لازاروس، قائد الجيوش المتحالفة، الذي أسره العثمانيون في المعركة.

أما القاتل "مولوك كابيلوفتش" فقد اعترف قبل موته بأنه أقدم على اغتيال السلطان لكي ينفي عن نفسه تهمة الخيانة التي وجهها إليه سيدة لازاروس قبيل المعركة، وليثبت لبني قومه أنه لا يعمل لحساب العثمانيين كما أدعوا، ولم ير إثباتًا أشد وقعًا في النفوس من الإقدام على اغتيال سيد العثمانيين وقاهر البلقانيين، مراد الأول!

تحققت الرؤيا كما فسرها إبراهيم البصري: فقد لمع انتصار السلطان كما لمع الخنجر في الأفق، ولكنه انتصار جر معه عواقب لم تكن في الحسبان، فقد تحول الخنجر في يد الرجل الصربي الذي أكب على قدمي السلطان ليقبلهما، إلى أداة للفتك به، وطعنه في صدره، ومنذ ذلك الحين، لم يسمح لأحد بأن يقبل قدمي السلطان العثماني إلا إذا أمسك به اثنان من الحراس!

ودفن مراد الأول في بروصة، عاصمته السابقة، وخلفه على العرش ابنه بايزيد الأول، وشيد العثمانيون مسجدًا في المكان الذي قتل فيه السلطان، كما أقام المصريون فيما بعد نصبًا تذكاريًّا للرجل الذي قتله!

أما نعمة، فقد بكت، وعادت إلى أدرنة حيث كانت الأخبار قد سبقتها، وعلم الناس في آن واحد بانتصار العثمانيين واغتيال سلطانهم.

وكانت الصدمة شديدة على إبراهيم البصري، فأودت بحياته قبل أن تعود المرأة، ويعرف منها أنها أدت الرسالة بأمانة إلى مولاه، وأن الأقدار أبت إلا أن تجري الحوادث، في هذه المرة أيضًا، كما تكهن بها العراف العربي.

وكان مراد الأول في السبعين من العمر، والشيخ إبراهيم البصري في التسعين.

السلطان في القفص

"الموت خير من الحياة الذليلة!" قال بعضهم هذا القول، وعملوا به

"…. اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء".

الحياة تجديد، وسنة العمران تقتضي الهدم والبناء.

انهزمت جيوش، وانقرضت أمم، واضمحلت دول، وقامت على أنقاضها دولة الأتراك الفتية.

في سنة ١٣٧٨ للميلاد، الموافقة لسنة ٧٨٩ للهجرة، تدفقت جحافل السلطان مراد الأول تدفق السيل الجارف، فأغرقت في خضمها سهول الأناضول، واكتسحت مدنه العامرة، ودكت جباله وحصونه.

وجعل الغزاة الظافرون يتطلعون إلى القسطنطينية، ويطمعون في الاستيلاء عليها والقضاء على دولة الروم فيها.

وكان يرافق السلطان في روحاته وغدواته، ابنه البكر الشجاع، الأمير بايزيد، زعيم الفرسان وقائدهم في حومات القتال.

وقعت عليه أنظار "هيلانة" الجميلة ابنة القائد الرومي "ميليناس" في أثناء مفاوضة بين الرجلين، على أثر انتصار جديد أحرزه بايزيد على أعدائه، فعلق به قلبها، وهامت تلك الفتاة الشقراء بحب ذلك الفارس الأسمر.

وفي ليلة ليلاء، تحت ستار ظلام مدلهم حالك، هجرت هيلانة أهلها، ورحلت عن ديارها، ولحقت بالفتى الآسيوي.

في سنة ١٣٨٩ للميلاد – الموافقة لسنة ٧٩١ للهجرة، التحمت جيوش الأتراك وجيوش الإفرنج في معركة دموية في سهول "قاصوي" فسقط مراد الأول في الميدان، تناوله المنجل الحاصد سنبله بين السنابل!

وكان بايزيد على رأس فرسانه، فالتف الجيش حوله، ونادى به الجنود سلطانًا خلفًا لأبيه، وهتفوا باسمه بين صليل السيوف وقرع الطبول.

وتضاعف نفوذ هيلانة التي صارت من الوصيفات.

وكانت الفتاة من أمة جلبت نساؤها على المكر والخداع، ومهرن في طرح الشباك للصيد في الماء العكر، ونبغن في حبك خيوط المكائد والدسائس.

اختلت هيلانة ذات يوم بالسلطان بايزيد، ودار بين الاثنين حديث مقتضب:

– رأيت أمس حلمًا مروعًا، أخشى أن يتحقق وأرتعد خوفًا عليك يا حبيبي!

– أي حلم هذا؟

– رأيت أخاك "يعقوب" يثب عليك وأنت راقد في فراشك، فيطعنك بخنجره، لكي يخلو له الجو من بعدك، ويتبوأ العرش الذي أنت جالس عليه!

- أضغاث أحلام!
- لا تقل هذا، فما أكثر الأحلام التي تحققها الأيام!
- وماذا تريدين أن أصنع؟
- أن تبطش بهذا المزاحم المزعج، قبل أن يبطش بك!

وفي مساء ذلك اليوم، مات الأمير يعقوب، شقيق السلطان بايزيد مخنوقًا في حجرته!

وبعد أيام دار بينها وبين السلطان حديث آخر:

- حلمت أمس حلمًا يخيفني أكثر من الحلم السابق!
- قصيه علي.
- رأيت "مانوئيل" ابن الملك "جان باليولوغوس" سيد الأروام وحاكم القسطنطينية، يقودك مكبلًا بالحديد إلى داخل أسواره، ويلقيك حيًّا طعامًا للكلاب!
- وماذا يتحتم علي؟
- أن تختطف هذا الأمير من قصر أبيه، وتحتفظ به رهينة بين يديك!
- وكيف السبيل إلى ذلك؟
- دعني أفعل، سأجيئك به إلى مضربك صاغرًا ذليلًا!

كانت هيلانة تحب مانوئيل لكنه أعرض عنها، فسعت إلى الانتقام منه، واغتنمت تلك الفرصة السانحة.

دخلت مدينة بيزنطة، ولفقت حديثًا كله كذب في كذب، فحملت الأمير مانوئيل على الخروج بشرذمة من رجاله، فوقع الجميع في كمين أقامه الأتراك، وجيء بالشاب أسيرًا مقيدًا إلى مضرب بايزيد.

فاضطر ملك الروم إلى دفع جزية، وافتداء ولده بأموال كثيرة.

في سنة ١٢٩٦ للميلاد – الموافقة لسنة ٧٩٩ للهجرة، سحق السلطان بايزيد جيوش الإفرنج سحقًا في واقعة ليكوبوليس. وعاد إلى ضرب الحصر على القسطنطينية، مقسمًا ألا يذوق راحة إلا بعد أن يقتحم أسوارها.

لكن عدوًّا جديدًا لم يكن بايزيد يحسب له حسابًا، ظهر فجأة وراء جيوش الأتراك المظفرة، وهدد مملكتهم بما كانوا يهددون به الممالك.

ذلك العدو هو تيمور لنك الفاتح التتري، الذي خضعت له شعوب الشرق قصايها ودانيها، والذي قيل له: إن هناك، في بطاح الأناضول سلطانًا يدعي أنه أشجع الشجعان، وأفرس الفرسان، فجد ساعيًا إليه طالبًا منازلته في الميدان.

فظن بايزيد إلى الخطر الداهم، فجمع خاصته وأمراء جيشه، وأصدر إليهم أوامره برفع الحصار عن مدينة الروم، وحصر جهودهم في صد الغزاة، وطردهم عن أطراف الأناضول.

في سنة ١٤٠٢ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة، في أنقرة مدينة الذكريات، في قلب الأناضول النابض، في السهل المنبسط، بين تلك الآكام والأنجاد، أعد بايزيد نفسه للقتال، وربض منتظرا قدوم المهاجمين فوفد عليه تيمور لنك بأربعمائة ألف فارس يشرعون الرماح، وستمائة ألف راجل يشدون إلى الأقوس النبال!

ودارت الدائرة على الأتراك، فوقع السلطان أسيرًا، وتشتت رجاله لا يلوون على شيء.

وسالت الدماء وارتفع العويل، وتصعدت من الصدور الزفرات.

جيء بالمغلوب أبي الغالب، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه، وسأله

- ماذا كنت تصنع بي لو ظفرت بجيشي ورأيتني الآن أسيرًا بين يديك؟.

- فأجاب بايزيد:

- كنت أحبسك في قفص من حديد، وأطوف بك في مملكتي..

فقال تيمور لنك:

- وهذا ما سأصنعه بك، حتى يقضي الله أمره!

وعاد الفاتح إلى بلاده. ومعه السلطان في قفص!

ومضت سنة وبايزيد في سجنه الحديدي، يبكي ملكه الضائع، وحريته المسلوبة، والغيظ يأكل أحشاءه.

أذاقه عدوه القاسي أنواع الذل والهوان، وطاف به في أنحاء مملكته، وعرضه على أنظار رعيته، وسمح للناس أن يبصقوا في وجهه، وأن يواجهوا إليه ما شاءوا من الإهانات.

وفي ذات يوم، دخل على تيمور لنك حاجب، وقال:

- مولاي، بالباب فتى يطلب المثول بين يديك، ويقول: إنه غريب عن هذه الديار، وأن لديه ما يفضي به إليك سرًّا.

فأمر تيمور لنك بإدخال ذلك الغريب..

وإذا بفتى أمرد، بهي الطلعة، يتقدم نحوه خائعًا، ويلقي بنفسه على قدميه باكيًا منتحبًا..

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- أنا...

تردد الفتى لحظة، ثم نزع ثوبه عن صدره وقال:

- لست كما تظن أيها المولى، إنما الماثل أمامك فتاة مسكينة، جاءت تطلب منك رجاء هو آخر رجاء لها في الحياة.

فانتفض تيمور لنك وقال:

- أفصحي.

- أنا حبيبة السلطان بايزيد، أسيرك المحبوس في قفص، جئت لأشاهد حبيبي للمرة الأخيرة.

فنهض تيمور لنك، واقترب من الفتاة الشجاعة، وقد أكبر إقدامها، وقال:

- لا أرفض إجابة رجائك، إليك ما تطلبين.

ونادى حاجبه، وأمره بالسير مع الفتاة إلى حبيبها في قفصه.

وصلت هيلانة أمام ذلك الذي أحبته، وخانت عشيرتها من أجله، فأجهشت بالبكاء، وأبكت الأسير معها.

ثم رفعت رأسها، وقد لمع في عينيها بريق لم يعهده بايزيد فيهما من قبل، وقالت له بصوت ثابت، ولهجة صارمة:

- بايزيد، وصلت إلينا أخبارك، وعلمنا بما ألحقه بك هؤلاء البرابرة من صنوف العذاب، وها قد جئتك اليوم حاملة إليك رجاء صديقة لا تطيق العيش بعيدة عنك، بايزيد، لا أمل في إنقاذك من مخالب هؤلاء الوحوش، فضع حدًّا للعار الذي تعيش فيه، اقطع حبل حياتك بيدك، ما دام عدوك لا يمن عليك بالموت الذي يخلصك من هذا العذاب، إنني أنتظر، وسأموت معك، هنا، على مرأى منك، فلم يدعها بايزيد تسترسل في كلامها، بل قاطعها قائلًا:

- صدقت يا هيلانة، الموت خير من الحياة الذليلة! الوداع يا حبيبتي! الوداع!

ووثب السلطان الأسير على حديد قفصه، فضرب رأسه عليه ضربة شجت جمجمته، وسقط يتخبط في دمه!

فصاحت هيلانه صيحة مفجعة، وتناولت خنجرها وأغمدته بين ثدييها.

وأمر تيمورلنك بدفن الجثتين في لحد واحد.

فتعانق الحبيبان عناقهما الأخير، بين أحضان الثرى، وفي سكون الموت!

كأس وعرش

كان ابن السلطان أكثر اهتمامًا بالكأس منه بالعرش..

وقد راح ضحية سكره على حين كانت الدماء تصبغ العرش بلونها الأحمر!

وقعت المعركة الفاصلة بين العدوين اللدودين في ٣٠ من يوليو سنة ١٤٠٢، الموافقة ٨٠٥ للهجرة، وبالرغم من استبسال الترك في القتال، وشجاعة سلطانهم بايزيد الخارقة، وبراعة قوادهم النادرة، فقد تغلب عليهم تيمور لنك التتري بجحافله الجرارة، وأنزل بهم هزيمة نكراء، وشتت شمل كتائبهم، وكلل انتصاره الساحق بأسر السلطان نفسه، وأخذه معه مكبلًا بالأغلال.. تلك هي معركة "أنقرة" التي فككت أوصال الدولة العثمانية في عهد الرابع من سلاطينها.

وكان لبايزيد خمسة أبناء أخذوا نصيبهم من القتال، وأبلوا فيه مثل أبيهم بلاء حسنًا، أولهم سليمان، الابن الأكبر، الذي ألح عليه أبوه بأن يهرب من الميدان إبقاء على السلالة المالكة، وإنقاذ للعرش، وثانيهم موسى، الذي جرح في خلال المعركة ووقع أسيرًا مع أبيه، وثالثهم عيسى الذي تمكن من الإفلات والالتجاء إلى مدينة بروسة، ورابعهم مصطفى الذي سقط في حومة القتال مثخنًا بالجراح، وخامسهم محمد البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، والذي أثار إعجاب أعدائه أنفسهم باقتحامه الأهوال، فأصيب بجراح لا عدد لها، وشق طريقه بين جموع التتار والسيف بيده، حتى بلغ إحدى القلاع

فاحتمى بها، وقد قتل محمد بن بايزيد بيده عشرات من فرسان تيمور، بينهم قائد من أشهر قواده، وأنشأ لنفسه ملكًا مستقلًّا في البقاع التي لم يتم استيلاء التتار عليها، في الناحية الآسيوية من السلطنة.

وكان مقدرًا لبايزيد أن يظل أسيرًا، وأن يموت في أسره، ويبقى ابنه موسى رهينة بين يدي تيمور.

أما سليمان فقد اجتاز البحر في طريقه إلى أدرنه، عاصمة السلطنة، للاعتصام فيها، وعرج في طريقه على القسطنطينية، حيث كان الإمبراطور مانوئيل باليولوغس يرقب تطور الصراع بين الترك والتتار، متمنيًا أن يقضي كل من الفريقين على الآخر قضاء لا قيام بعده، لكي يبتعد الخطر عن عاصمته التي كان هؤلاء وأولئك يتطلعون إليها، ويتوقون إلى الاستيلاء عليها!

ورحب الإمبراطور الرومي بالأمير التركي الشريد، وأنزله ضيفًا في قصره، وأجابه إلى رغبته في عقد محالفة بين القسطنطينية وأدرنة، وتم الاتفاق بين الرجلين على ألا يناصب أحدهما الآخر عداء ما داما على قيد الحياة.

وتوكيدًا لهذا الميثاق، طلب سليمان من حليفه أن يزوجه ابنة أخيه الأميرة "تيودورا" فحقق مانوئيل أمنيته، وطلب منه مقابل ذلك أن يترك أخته "فاطمة" ابنة السلطان بايزيد في القسطنطينية ضيفة على أسرة الإمبراطور، ولم يمانع سليمان في ذلك.

وواصل الأمير العثماني سيره إلى أدرنة، ومعه زوجته الرومية، وأربع وصيفات روميات مثلها، والحسناء "صوفيا" الألبانية، أختها في الرضاعة.

وفي عاصمة السلطنة التي مسخت بعد أن كانت مترامية الأطراف استقر المقام بابن بايزيد، ولحق به فريق من القواد وأقطاب الدولة، الذين نجوا من الهلاك بعد هزيمة أنقرة، وقد أفرغوا آمالهم كلها في الأمير الشاب الذي ألقيت على عاتقه مهمة النهوض بالشعب العثماني المتضعضع، وصيانة العرش المتداعي، وإعادة تنظيم الجيش المشرد.

ولكن آمالهم أصيبت بصدمة عنيفة، منذ الأسابيع الأولى: فقد نسي سليمان أو تناسى أن أباه يرسف في أغلال الذل والهوان، وأن التتار يحتلون جزءًا من أطراف دولته، وأن أخاه محمدًا يروم البقاء مستقلًّا في جزء آخر من تلك الدولة.

كان سليمان أكثر اهتمامًا بالكأس منه بالعرش، وأشد ميلًا إلى اللهو منه إلى الجد، يؤثر قضاء وقته بين أحضان نسائه، على قضائه في مجلس الدولة مع وزرائه وقواده، وكان أنصاره يأسفون لسلوكه المعوج، وهو الرجل ذو الصفات الكثيرة، الشجاع المقدام، الذكي النابه، الكريم السخي، الذي لم يكن فيه غير عيب واحد: إدمانه على معاطاة الخمور، وهو عيب كاف لتحويل جميع الصفات الحسنة إلى عيوب بشعة!

ولم تكن زوجته الرومية أقل امتعاضًا من رجال الدولة الغيورين على أميرهم، فقد كان سليمان يقسو عليها وهو في حالة سكره، وكثيرًا ما كان هذيانه يدفعه إلى مطاردة الوصيفات والجواري والعبيد، خلال قاعات القصر وممراته، وفي يده سطو يلهب به ظهورهم، ويضحك من صياحهم، وتنبسط أساريره لرؤية الدماء تسيل من جراحهم!

وفي إحدى الليالي – وما أكثر مثيلاتها – خطر له أن يأمر "صوفيا" صديقة زوجته، بأن تجري في قاعة العرش، عارية من الثياب، لكي يجرب فيها سوطه، فرفضت الفتاة بأنفة وإباء، وثار ثائر الأمير السكران، فوثب عليها، ولفح وجهها بسوطه، وأسرعت تيودورا لحماية صديقتها من الأذى، وخرج سليمان من القاعة يتوعد ويهدد، ويرغى ويزبد!

ضمت الرومية أختها الألبانية إلى صدرها، وجعلت تمسح بمنديلها خيوط الدماء النافرة من خدي صوفيا الناعمين، وتمسح في آن واحد الدموع المنهمرة من عينيها النجلاوين.

وبكت الزوجة لبكاء صديقتها، وقادتها برفق إلى مخدعها.

أما سليمان، فقد ملأ أرجاء القصر بصياحه، ولم تهدأ ثورته إلا عندما التقى أمام الرتاج الخارجي، بالصدر الأعظم علي باشا، وقائد الانكشارية حسن أغا، ومعهما شخص ثالث، قالا للأمير: إنه رسول موكل من تيمورلنك قاهر أبيه!

كان الرجل يحمل خطابًا من سيد التتار إلى الأمير العثماني، ونبأه فيه بوفاة السلطان بايزيد في الأسر، ويقول: "لقد حالفني الحظ أكثر من أي رجل آخر في هذه الدنيا، وما نظر أحد إلى ما بلغته من سؤدد ومجد، إلا أصابه الذهول، ولكن ذلك كله لا يؤثر في بقدر ما أثر في شقاء أبيك، فإنه يحملني على وضع حد لمطامعي، ويعلمني أن الدنيا علو وهبوط، فأنا راغب الآن في نسيان الماضي، أريد أن أنسى أنني كنت عدوًّا لبايزيد. بل إنني راغب في أن أكون أبًا لأبنائه، على شرط أن يسلموا إلي قيادهم.. إن فتوحي تكفيني، ولا أريد أن أضيف إليها فتوحًا جديدة".

ذلك ما جاء في تلك الرسالة العجيبة، التي يبعث بها تيمور لنك القاهر، إلى خليفة بايزيد المقهور.

ولكن سليمان لم يقابل نيات الفاتح التتري الحسنة، بما تستحقه من تقدير ومسالمة، بل إن السكر صور له أن تيمور لنك خائف منه، وأن عطفه عليه ليس في الواقع غير ضعف يجب مواجهته بالشدة والعنف!

وكتب سليمان العثماني إلى تيمور التتري ردًّا عده الفاتح المنتصر رعونة ووقاحة، فنادى أسيره موسى بن بايزيد، وقال له: "كن سلطانًا بعد أبيك السلطان، ومحل أخيك الذي لا يليق بالعرش، فإنني لا أريد القضاء على ملك بني عثمان، والفاتح ذو النفس العالية، يعرف كيف يغزو الممالك، ويعرف أيضًا كيف يردها إلى أصحابها، فأنت في نظري منذ الآن، السلطان موسى الأول!".

وانطلق الأخوان في سبيل الاستئثار بالعرش، واستعان موسى الأول بالتتر، لمهاجمة أخيه سليمان الأول، الذي استعان عليه بالروم!

ونزل إلى الميدان أيضًا الأخوان محمد وعيسى، فأصبح العرش العثماني رهانًا بين الأخوة الأربعة، كل منهم يسعى للتربع عليه خلفًا للأب الراحل، بايزيد الأول!

وبينما تيمور لنك يعود أدراجه، راجعًا إلى سمرقند، بدون أن يحتفظ لنفسه بشيء من فتوحه، كانت السلطنة العثمانية تتحول، من أقصاها إلى أقصاها، إلى ميدان لحرب أهلية طاحنة، يتناحر فيها الأخوة، وتتقاتل فيها الأحزاب..

لم تطق صوفيا البقاء في قصر السلطان سليمان بأدرنة، بعد الإهانة التي لقيتها منه، ولم يسع السلطانة تيودورا إلا أن تقرها على الرحيل عن مكان أصبح بالنسبة إليها أشبه بالجحيم، فودعت الفتاة أختها في الرضاعة، وابتعدت عن العاصمة التركية بدون أن تعلم إلى أين تقودها خطاها!

لم تفكر في العودة إلى القسطنطينية، والإقامة من جديد في كنف الإمبراطور، ولم يكن لها في وطنها ألبانيا أهل تلجأ إليهم، أو بيت تحتمي فيه، فسارت هائمة على وجهها، معرضة للمخاطر في بلاد أمنها مفقود وحالتها مضطربة، ووصلت ذات يوم إلى بلدة "دكنجي" حيث تقيم جماعة من الصيادين التركمان، وكان الإعياء قد أخذ منها مأخذه، فطرقت باب أسرة من أسر أولئك الصيادين، ورحب بها أفراد الأسرة، ورفقوا بحالها.

وما مرت أسابيع حتى كانت صوفيا الألبانية قد أصبحت زوجة لواحد من الأخوة الخمسة الذين تتألف منهم الأسرة التركمانية، وهو الأخ الوحيد العزب!

وبدأت الألبانية الحسناء تألف الحياة الجديدة التي هيأتها لها المصادفات، وتنسى ماضيها في قصر الإمبراطور الرومي، ثم في قصر السلطان العثماني، وانصرفت بكليتها إلى العناية ببيتها، وأخذ نصيبها من الأعمال المنزلية بين أفراد أسرتها الجديدة..

ولكن الأقدار أبت أن تساعدها في إسدال الستار على الماضي، وشاعت أن تجمع من جديد بين الوصيفة التي أهينت والسلطان الذي أهانها، وذلك في ظروف لم تكن في الحسبان!!

فقد توالت المعارك بين الأخوة الأربعة المتزاحمين على عرش العثمانيين، وتخللتها حوادث ومفاجآت قلبت الحالة في النهاية رأسًا على عقب.

هاجم سليمان أخاه موسى، ثم ارتد متقهقرًا، ولحق به أخوه، وانضم عيسى إلى هذا ثم إلى ذلك، وفعل محمد مثله، فحالف موسى ثم حالف أخاه الكبر، وانسحب عيسى من الميدان واختفى، ولزم محمد الحياد، وترك أخويه يتقاتلان على العرش، وانهزم موسى أمام سليمان، فابتعد إلى جبال البلقان ليعد العدة لهجوم جديد، وظن سليمان أن الأمر قد استتب له؛ فقبع في عاصمته أدرنة، وعاوده فيها الحنين إلى الكأس، فانغمس في ملاذه بعد أن حرمته المعارك إياها، وفجأة، ظهر أمام أسوار المدينة جيش لجب يقوده موسى، واجتاز الجيش الأبواب التي فتحها الحراس بلا مقاومة، واقتحم القصر حيث كان الأخ السكران خالي البال لا يفكر في خطر، ولا يظن أن هناك من يهدد عرشه وحياته..

وتخلى عنه قواده ووزرائه، فهرب من القصر بمعونة بعض الخدم والعبيد، وامتطى صهوة جواده العربي الأبيض، وانطلق في العراء يطلب النجاة.

ولحق به ثلاثة من رجال الحرس الذين ظلوا على ولائهم له، وبعد رحلة شاقة في الجبال والوديان، وصل السلطان الطريد إلى غابة كثيفة، في طريق القسطنطينية، وبدت له، في طرف الغابة، بلدة صغيرة عرفها رجال الحرس.

سأل سليمان: "ما اسم هذه البلدة؟" فقيل له: اسمها "دكنجي".

وتردد الفرسان الأربعة وتشاوروا فيما بينهم: هل يدخلون القرية، أو يواصلون السير بعيدين عنها؟

وتناول سليمان قرية صغيرة معلقة على سرج جواده، وأفرغ في فمه البقية الباقية فيها من خمر أدرنة! فإنه نسي كل شيء قبل هربه، ولكنه لم ينس مئونته من الخمر!

وقبل أن يستقر الرفاق الهاربون على رأي، ظهر بين أشجار الغابة خمسة من الرجال التركمان، وعلى يد كل منهم قوسه.

إنهم ذاهبون كعادتهم كل يوم إلى الغابة للصيد والقنص، وقد وقع نظرهم على الأغراب، الذين استرعوا انتباههم بأثوابهم الزاهية المزخرفة، وخيولهم المطهمة، فاقتربوا منهم مدفوعين بحب الاستطلاع...

لكن السلطان الهارب أوجس خيفة منهم، وصور له سكره أن أولئك الرجال الخمسة، المسلحين بالأقواس والسهام، إنما هم قتلة أرسلهم أخوه في أثره لاغتياله، فشد سهمًا إلى قوسه، وفي سرعة البرق أطلقه على واحد من الخمسة فأرداه قتيلًا، وفي سرعة البرق أيضًا، شد سهمًا ثانيًا، والحق بالقتيل الأول قتيلًا آخر، ولكن الثلاثة الباقين كانوا قد اتخذوا من الأشجار متاريس تحميهم من ثورة الغريب الهائج، وشدوا من جهتهم ثلاثة سهام إلى أقواسهم، وأطلقوها معًا فاستقرت جميعها في قلب السلطان، وهوى عن جواده جثة هامدة، على حين كان رفاقه يرخون لخيولهم العنان، وينجون بأنفسهم من هلاك أكيد.

واقترب الصيادون الثلاثة من جثة القتيل، وفصلوا رأسها عن الجسد، وحملوا الرأس إلى القرية، وحملوا معه القتيلين.

لم يكن أولئك الصيادون غير أفراد الأسرة التركمانية التي انضمت إليها

صوفيا الألبانية في بلدة دكنجي، وكان زوجها أحد الاثنين اللذين أرداهما السلطان قتيلين، قبل أن تمزق السهام الثلاثة صدره.

وعرفت المرأة سليمان بن بايزيد عندما وقع نظرها على الرأس المخضب الدم، فراحت تبكي وتنوح على موت زوجها، وأمام سكان القرية الذين تجمعوا حول الجثتين، قصت صوفيا قصتها، وروت لهم كيف ضربها السلطان بسوطه، وكيف هربت من قصره!!

وحمل الأخوة الثلاثة رأس سليمان إلى أخيه موسى، فأخذه منهم، أمر بدفنه في حديقة القصر، ولكنه خاطب الصيادين قائلًا:

– إن أخي كان عقبة في طريقي، وكان لابد من موته، ولكن، كان يجب أن يقتل بيدي، لا بأيديكم أنتم، يا صيادي الوحوش!

وأمر بالقبض على أولئك الذين خلصوه من مزاحمة على العرش، وأرسلهم إلى قرية دكنجي حيث قتلهم رجاله حرقًا!

وبعد مقتل الإخوان الخمسة، قبعت في بيت الصيادين خمس نساء يبكين رجالهن!

ولكن الأقدار لم تختم سلسلة مفاجأتها بمصرع السلطان والصيادين الخمسة، بل ادخرت لصوفيا الألبانية مفاجأتين آخرتين، فقد وثب محمد ابن بايزيد على أخيه موسى، كما وثب موسى من قبل على أخيه سليمان.

وبعد أن انهزم سليمان وقتل في سنة ١٤١٠ للميلاد الموافقة لسنة ٨١٣ للهجرة – حلت الهزيمة أيضًا بأخيه موسى. سنة ١٤١٣ الموافقة

لسنة ٨١٦ للهجرة؛ ففر حارق الصيادين الثلاثة من قصره بأدرنة، ولحق به جنود أخيه فقتلوه في مستنقع غاص فيه جواده.

وأما المفاجأة الأخيرة: فهي قدوم تيودورا، السلطانة الرومية، إلى قرية دكنجي. وإلحاحها على أختها صوفيا بالعودة معها إلى قصر الأباطرة في القسطنطينية. وقبول الألبانية رجاء السلطانة السابقة.

وعلى ضفاف البوسفور، حاولت المرأتان أن تقضيا البقية الباقية من حياتهما في جو ينسيهما تلك الحوادث الدامية التي أثارها الإخوان سليمان، وموسى، للاستئثار بعرش بني عثمان، فكانت النتيجة أن ذهب الاثنان ضحية ذلك الصراع العنيف، الأول بسبب الكأس التي أثرها على العرش، والآخر بسبب طيشه وسوء تدبيره، فآل الملك بعدهما إلى محمد الأول بن بايزيد، وامتنع العثمانيون فيما بعد عن تدوين اسمي سليمان وموسى بين أسماء السلاطين، باعتبار أنه لا هذا ولا ذلك قد تربع على عرش الدولة العثمانية موحدة تحت سلطة واحدة.

إبنة الراعي

حارب من أجل العرش فانهزم، وأثر الحياة بين رعاة الغنم على مواصلة القتال!

أسفرت المداولة بين الأمير عيسى بن السلطان بايزيد، والقائد العظيم تيمور طاش، عن اتفاق تام بين الرجلين، فعولا على خوض غمار الحرب، والفوز بالعرش العثماني الذي كانت تتقاذف المطامع وتكتنفه المؤامرات.

وقال تيمور طاش السياسي المحنك، للأمير الشاب:

- لست يا بني أكبر إخوتك سنًّا، ولا أوسعهم خبرة، ولكنك في نظري أقربهم إلى قلوب الرعية، وأكثرهم عطفًا عليها، والدولة الآن في حاجة إلى سلطان يواسيها ويضمد جراحها، بعد ما أصابها من هوان على يد تيمور لنك وأولئك التتار الذين اجتاحوا بلادنا، وقادوا أبوك أسيرًا إلى حيث لقي حتفه.

وأجاب الأمير عيسى بن السلطان بايزيد:

- إنني أضع كل ثقتي فيك يا تيمور طاش، لأنك بالنسبة إلي بمثابة ذلك الوالد الذي فقدته، وإذا كانت تنقصني الخبرة، فعندك منها ما يكفي ويزيد، إن كلًّا من إخوتي الثلاثة، سليمان وموسى ومحمد، يسعى إما للاستيلاء على عرش آل عثمان في "أدرنة"، وإما إلي اقتطاع جزء من الأرض العثمانية لينشئ فيها إمارة لحسابه، فلماذا

لا أصنع أنا ما يصنعه إخوتي، كل من ناحيته؟ ألست مثلهم من صلب بايزيد ومن سلالة عثمان؟ فلنتوكل إذن على الله، ولتكن مشيئته الحاكمة الفاصلة بيننا نحن الأربعة!

– ليس في وسعنا الآن أن نحارب إخوتك مجتمعين، بل يجب علينا أن نتغلب عليهم متفرقين، وجيش أخيك محمد يقف الآن وحده في طريقنا، ويحول دون إقامة عرش لك في الأناضول، ريثما يصبح لدينا من القوة ما يكفي اجتياز المضايق والوثوب على أدرنة حيث يعتصم سليمان في قصر السلاطين.

– لنتخلص أولًا من محمد وجيشه.

– إن هذا الجيش يقوده يعقوب باشا، القائد الداهية الشجاع، الذي دافع عن أنقرة دفاع الأبطال، وأنزل بالتتار خسائر ضعضعت صفوفهم. فالخصم الذي أمامنا صنديد عنيد.

– ولكنك لست أقل دهاء وشجاعة من يعقوب، يا تيمور طاش!

وتعانق ابن السلطان ووزيره القائد، وجلسا يعدان العدة للمغامرة التي حزما أمرهما عليها.

كانت السلطنة العثمانية في حالة يرثى لها، بعد هزيمة بايزيد في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٠٥ للهجرة، ووقوعه أسيرًا في يد تيمور لنك، وموته بعيدًا عن وطنه، فقد اختلط الحابل بالنابل، وتقاتل أبناء السلطان وتناحروا، وللمرة الأولى في تاريخ السلطنة منذ نشأتها، وقعت حرب أهلية بين العثمانيين الذين تفرقوا شيعًا وأحزابًا.

وفي المعركة التي اشتبك فيها الأميران عيسى ومحمد، دارت الدائرة على الأول، وكتب النصر للآخر، وقهر يعقوب باشا خصمه ومنافسه تيمور طاش، وفي مساء ذلك اليوم الذي خابت فيه آمال عيسى، دخل واحد من عبيد تيمور طاش على سيده في خيمته، وقطع رأسه، وحملها في كيس إلى الأمير محمد الذي أرسلها مع وفد من أنصاره إلى أخيه الأكبر سليمان، وكان قد نادى بنفسه سلطانًا في أدرنة، وكان محمد بهذا العمل يريد أن يقول لأخيه: "لقد خلا لي الجو في الأناضول، فابق أنت سلطانًا في الجزء الأوربي من أرضنا، واترك لي الجزء الآسيوي!".

أما عيسى السيئ الحظ فقد تمكن من الغرار، ولجأ إلى بيت تيمور طاش في مدينة بروصة، ولكنه أدرك أن أخاه سيلحق به، فحار في أمره، وقد وجد نفسه وحيدًا شريدًا بعد أن انفرط من حوله عقد أنصاره، وتخلى عنه الجميع لينضموا تحت لواء محمد.

وهنا دخلت في حياة الأمير الشاب الفتاة التي اختارتها الأقدار لإنقاذه من هلاك أكيد، مرتين متواليتين.

فإن أسرة تيمور طاش كانت ترتعد خوفًا في بيت القائد الذي قتل غدرًا، وزادت مخاوفها عندما لجأ إلى البيت الأمير التعس الهارب، وشعر المسكين بأن بقاءه سيجر على الأسرة الوبال، فعول على الرحيل للبحث عن مأوى لا يكون في متناول أخيه.

وتقدمت إليه فتاة تعمل خادمة في بيت الأسرة، وأفضت إليه بما يجول في خاطرها، إنها رومية تدعى "نفتاليا" وابنة رجل من رعاة الغنم في جبال

طوروس، رآها تيمور طاش مرة في بلدة "ساتاليه" وهي في عراك مع جماعة من الترك، يحاولون اختطاف كومة من الجلود جاءت إلى البلدة لبيعها، فأنقذها القائد من أيديهم، واشترى منها الجلود ودفع لها الثمن، وأعادها إلى أبيها في ظاهر البلدة حيث كان الرجل يعرض أيضًا للبيع كومة أخرى من الجلود، فقبل الراعي الرومي يد القائد التركي، وشكره على صنيعه، ولما عرض عليه تيمور طاش أن يأخذ ابنته لتكون رفيقة لبناته في داره بمدينة بروصة، لم يمانع الرجل، بل رأى في ذلك فرصة سانحة لإنقاذ الفتاة من مخاطر الحياة في الجبال الوعرة، في زمن فقد فيه الأمن، وانتشرت اللصوصية وعمت الفوضى.

وهكذا انتقلت نفتاليا ابنة راعي الغنم، من حال إلى حال، وهي الآن بعيدة عن أبيها، لا تعرف ماذا حل به منذ أن فارقته في ساتاليه؟ ولا تعرف ماذا يخبئ لها الغد، بعد مصرع الرجل الذي تبناها وأغدق عليها أياديه البيضاء؟

إنها حزينة كئيبة، والأمير الهارب حزين كئيب، لا هي تعرف إلى أين تذهب، ولا هو يعرف إلى أين يتجه؟ وأما أسرة تيمور طاش، فإنها تفكر في الانتقال من بروصة، هربًا من بطش الأمير محمد بعد انتصاره، والذهاب إلى أدرنة، والالتجاء إلى أخيه سليمان، وهذا ما لم يكن في وسع عيسى أن يقدم عليه، لأنه يخشى أخاه هذا، بقدر ما يخشى أخاه ذاك!

وقالت نفتاليا: في غمرة يأس سدت في وجهها المنافذ:

- لنذهب إلى القسطنطينية، ولنطلب حماية الإمبراطور!

وراقت هذه الفكرة للأمير عيسى بن بايزيد، فإن القسطنطينية التي كانت لا تزال باقية في قبضة الروم، بعد أن استولى الترك على ملكهم كله، كانت الملجأ الوحيد الذي يطرق بابه كل أمير عثماني، أو قائد تركي، تنزل به نكبة، أو تحل به نقمة!

أكرم إمبراطور الروم وقادة الأمير العثماني، واطمأنت نفتاليا على نفسها في كنف قومها، ولكن عيسى لم يخلد إلى الهدوء والاستكانة في ذلك المأوى الأمين، فجعل يخابر أعوانه سرًّا، وشجعه الإمبراطور على استئناف الصراع مع أخيه محمد الذي استقر في إمارة الأناضول وعاصمتها بروصة، لن مصلحة الروم كانت تقضي بإضعاف الترك في حروب ومنازعات، وأرسل سليمان من عاصمته أدرنة يحث كلًّا من أخويه سرًّا على محاربة الآخر، وما هي غير شهور حتى كان عيسى بن بايزيد قد جمع حوله مؤلفًا من عشرة آلاف مقاتل، واجتاز المضايق من الضفة الأوروبية إلى الضفة الأسيوية — وأغار على مملكة أخيه على أمل أن يطرده من بروصة كما طرده هو منها بعد المعركة الأولى..

ولكن المعركة "الثانية" لم تكن خيرًا من سابقتها، وبالرغم من المساعدة التي تلقاها عيسى من إمبراطور الروم، وانضمام لفيف من الإقطاعيين الترك إليه، فقد مني بهزيمة نكراء، ولم يفلت من الهلاك إلا بفضل سرعة جواده الذي ابتعد عن ميدان القتال في ظلام الليل!

قضت تلك المعركة على آمال الأمير الشاب قضاء تامًّا، ولم يبق له أمل في أن يبتسم له الحظ من جديد، ولكنه لم يفلت في هذه المرة وحده، بل

تبعته الفتاة الرومية نفتاليا، التي أبت ألا أن تشاركه في مصيره إلى النهاية، فمشت معه إلى القتال، ولحقت به بعد الهزيمة!

تجلى لعيسى شبح اليأس في أفظع صوره، فقد تشتت رجاله، وحنق عليه الأنصار الذين أيدوه، وأطلق أخوه محمد في أثره أسرع فرسانه، وأشد زبانيته قسوة، للقبض عليه حيًّا أو ميتًا، واسودت الدنيا في وجهه فجعل يتساءل: أليس خيرًا له وأوفى أن يقطع حبل حياته بيده، بدل أن يظل تائهًا في البراري والقفار، لكي يقع في أيدي القتلة الذين سيتسابقون إلى الفتك به، طمعًا في المكافأة التي لابد أن يخصهم بها أخوه الغاضب الناقم؟

وفي ظلمة تلك الهواجس رن في أذني عيسى صوت عذب طالما طرب من قبل لسماعه، ذلك هو صوت نفتاليا، راعية الغنم الرومية، التي هدته إلى طريق القسطنطينية، وتفانت في خدمته وهو ضيف على الإمبراطور، وظلت ملازمة له عندما خرج للحرب ثانية، ولم تفكر في التخلي عنه بعدما أصبح وحيدًا طريدًا شريدًا:

- يا أميري المحبوب، لا يحسن بنا في هذه المرة أن نلجأ من جديد إلى عاصمة الروم، ولو ذهبنا إلى أخيك سليمان لأعتقلك وسجنك. ولو احتمينا بحصن من حصون أعوانك، أو من كانوا بالأمس أعوانك، فسوف يسلمك صاحب الحصن أيًّا كان إلى أخيك محمد، أو إلى أخيك الثالث موسى الطامع أيضًا في العرش مثلك.
- صدقت يا نفتاليا، إذن، لا يبقى أمامي غير مخرج واحد من هذا المأزق الصعب!

- وأي مخرج تعني؟

- سأقتل نفسي، فأستريح، وأريح إخوتي مني، وأريحك أنت من الخوف والقلق!

كان الشابان قد وصلا إلى غابة تعذرت عليهما مواصلة السير بين أشجارها المتلاصقة، في ذلك الظلام الحالك، فترجلا، واستلقيا على الأرض منهوكي القوى، واقتربت الفتاة من الأمير المنكوب، وحدقت فيه البصر، وقالت بصوت متهدج والعبرات تكاد تخنقها:

- عيسى، ما الذي جعلك تعتقد أنني خائفة قلقة؟ وكيف أمكنك أن تظن لحظة واحدة أن في موتك راحتي، وأن حياتك ليست عزيزة علي؟ أنت إذن لا تثق بي، ولا تحبني!

كانت هذه الكلمات كافية لتمزيق الغشاوة عن عيني الشاب الذي فقد كل شيء، فأدرك أن تلك الفتاة تحمل بين جنبيها من العواطف النبيلة ما لم يجد له مثيلًا عند الأمراء والقواد والأقيال الذين تخلوا عنه في الشدائد، وإن راعية الغنم الرومية أوفر إحساسًا وأبعد شهامة من سكان القصور، وإن "نفتاليا" مخلصة له وفية، وإن الحب قد لامس قلبها إن لم يكن قد استقر فيه بعد!

فأجاب قائلًا:

- معذرة يا صديقتي، إن اليأس يفقدني الصواب.

وتفتحت أساريره طربًا، عندما جاء رد الفتاة في نغمة حلوة داعبت مسامعه:

– يجب أن تطرد اليأس من طريقك، يا حبيبي!

وصمت الاثنان لحظة، ثم انهمرت الدموع من أعينهما، في عناق طويل.

وسأل الأمير راعية الغنم:

– نفتاليا، تحبينني حقًّا؟

وأجابت الفتاة ببساطة وبلا تردد:

– نعم، أحبك، أحبك منذ الساعة التي وفدت فيها على بيت سيدي وولي نعمتي تيمور طاش، ولقد أحببتك بلا انقطاع، ولكن في سكوت وسكون، فأنت أمير وابن سلطان وصاحب عرش، أما أنا....

– ولا تزالين إلى الآن وفية لحبك هذا، بالرغم من أنني أصبحت بائسًا، لا أمل لي في عرش، ولا رجاء لي في جاه؟

– إن حبي قد تضاعف الآن لأنك بائس، ولأن العرش قد أفلت منك!

بكى عيسى بن بايزيد، بكى طويلًا ولم تحاول نفتاليا منعه من البكاء، ولم تجفف دموعه، بل تركته يغسل بتلك الدموع أحزانه وآلامه، وابتعدت عنه متسللة بين أشجار الغابة، ثم عادت تحمل ما عثرت عليه من أثمار برية.

وخيل لعيسى أنه يصحو من حلم مزعج، ومن كابوس كان يثقل صدره.

أكل التمر من يد الحبيبة، ومشى معها في الغابة نحو نبع تتدفق مياهه بين الصخور.

وسألها ضاحكًا مبتهجًا:

– أتعلمين إلى أين أريد أن أذهب بك الآن يا نفتاليا؟

وأجابت الفتاة فورًا:

– نعم، أعلم علم اليقين؟

– إلى أين؟

– إلى الجبال التي كنت أرعى فيها الغنم، قبل أن أهبط إلى المدن، وأسكن في القصور!

– أصبت، هذا ما أريده، سنعيش معًا، عند أبيك، بين قطعان الماشية، في الوديان السحيقة والسفوح الوعرة والمروج الخضراء، سنسكن في المغاور، ولن نعود إلى الحواضر أبدًا.

– ونترك الباحثين عن متاعب الحياة والطامعين في العروش، والساعين إلى المجد، يتقاتلون ويتذابحون!

– وسأرعى الغنم معك، بدل أن أرعى شعبًا في بروصة أو أدرنة!

– وسوف ترى أن الرعية التي أنت ذاهب إليها، أكثر وفاء من الرعية التي فقدتها!

وصل عيسى بن بايزيد والفتاة نفتاليا إلى بلدة ماتاليه، التي على شاطئ البحر المتوسط، والتي كان اليونانيون في غابر الأزمنة يسمونها "أتاليا"، وأطلق عليها العثمانيون فيما بعد اسم "اضماليه" الذي لا يزال يلازمها إلى الآن.

ومن تلك البلدة الصغيرة الرابضة على الخليج الذي يحمل اسمها. واصل الشابان السير إلى جبال طوروس.

ومنذ ذلك الوقت، لم يعرف أحد شيئًا عن الأمير الذي حارب من أجل العرش، وقاتل أخاه، ومنى بهزيمتين متعاقبتين، والذي أثر في النهاية حياة البداوة في مغاور الجبال، على حياة الترف في قصور السلاطين.

فقد عاش عيسى ونفتاليا سعيدين، وأصبح ابن السلطان راعي غنم مثل راعية الغنم التي أحبها وأحبته، فجعل منها زوجته، وأسهل بين العالم وبين سعادته ستارًا لم يرفع المؤرخون أطرافه إلى الآن!

ابنة الخائن

كانت الخيانة قد امتزجت بدمه..

ولكن الخائن ندم وتاب، وكان الفضل في ذلك لابنته.

كانت "علية" الابنة الوحيدة بين خمسة أخوة، ولكنها كانت تفوقهم ذكاء وحكمة وتقديرًا للأمور، وإن لم تكن أكبرهم سنًّا، وكانت ثاقبة البصر قويمة الخلق، ولم تكن لتقر أباها على سلوكه الأعوج، واتخاذه الخيانة حرفة يحترفها، بل فنًّا يبرع فيه ويتقنه، وهو القائد المحنك والجندي الشجاع! غير أنها فشلت في محاولة تقويم اعوجاجه، وحمله على اتخاذ الصدق سبيلًا، والإخلاص مبدأ، ولكن "قره جنيد"، كان يرى غير ما تراه ابنته، وكانت أسرته كلها، ما عدا الفتاة الجميلة الذكية الحكيمة، توافقه على خططه الواسعة، وتشجعه على المضي عليها، وتشاركه فيما كان يعلل به النفس من أحلام ومطامع وأهداف!

كان أبناء السلطان "بايزيد" العثماني في ذلك الوقت يتقاتلون ويتناحرون لاقتسام السلطنة، بعد مصرع أبيهم وهو في أسره "تيمور لنك" التتري، وكان كل منهم يخطب ود "قره جنيد" ويغريه للانضمام إليه، وتأييده في الاستئثار بالعرش، فجعل يراوغهم ويلعب بهم، ويسعى إلى خدمة نفسه دونهم، وقد وضع نصب عينيه هدفًا صمم على بلوغه بجميع الوسائل، المشروع منها وغير المشروع.

بدأ "جنيد" بخيانة "محمد" أحد الإخوة المتخاصمين، فاستقل بالحكم في مدينة أزمير، وجعلها قاعدة لإمارة أعلن نفسه أميرًا عليها.

ولكن "سليمان" – أخا "محمد" – هاجمه فيها، حتى إذا ما شعر "جنيد" بأن الدائرة ستدور عليه، خرج من المدينة وحده، ووضع في عنقه حبلًا دلالة على الاستسلام، وذهب إلى سليمان يعرض عليه الطاعة، فمنعها عنه وتركه في مدينته يحكمها باسمه.

وسقط سليمان قتيلًا، وقتل أيضًا موسى واختفى عيسى، ولم يبق غير "محمد" فآل إليه العرش، ولكن "قره جنيد" كان قد حصن أزمير ورفع أسوارها، فأعلن العصيان ولم يعترف بسيادة السلطان الجديد، وعقد محالفة مع "قرمان" وهو قائد طموح مثله، يحلم بإنشاء إمارة يقتطعها من جسم السلطنة، ويتربع على عرشها.

وزحف السلطان الجديد "محمد الأول" على القائدين العاصيين، بعد ارتقائه عرش آل عثمان بسنتين، فانتصر على "قرمان" في معركة دامية، ولكنه عجز عن الفوز بحليفه "جنيد"، الذي اعتصم في مدينته واعتزم المقاومة إلى النهاية!

وعهد السلطان إلى التحايل لاستمالة القائد العنيد، فأوفد إليه كبير أعوانه، بايزيد باشا، للتفاهم معه، وتم الاتفاق بين السلطان وبايزيد على أن يطلب هذا من جنيد أن يزوجه ابنته الوحيدة، وأن يكون ذلك الزواج بمثابة عهد صداقة ووئام بين الأسرتين، توطئة للتحالف بين جنيد وصاحب العرش، وتصفية للخلاف الناشب بينهما...

وصل بايزيد باشا أمام أسوار أزمير، وأرسل إلى أميرها واحدًا من أعوانه، فاستقبله "جنيد" في قصره، أمام فريق من أنصاره وأقاربه، فقال الرجل إنه

جاء موفدًا من بايزيد باشا الذي ينتظره خارج الأسوار، وإنه مكلف بعرض الصلح عليه، وطلب ابنته "علية" زوجة لبايزيد باشا رسول السلطان محمد الأول وقائد جيوشه.

واستنتج جنيد من هذا المسلك أن السلطان خائف منه، وأن رسول السلطان طامع في ماله عن طريق الزواج بابنته، وأدرك أن في المسألة مؤامرة للتخلص من مقاومته في الحاضر، والقضاء على حياته في المستقبل، فنادى أفراد أسرته جميعًا، أمه وزوجته وأبناءه الخمسة وابنته الوحيدة "علية" وعلى مسمع منهم، وأمام الأعوان والنصار والاتباع الذين حشدهم في قاعة القصر الكبرى، قال بصوت جهوري ولهجة مشبعة بالتهكم، مخاطبًا رسول بايزيد: "سأعطيك الرد الشافي على رسالتك أيها الرجل".

قال ذلك، والتفت إلى واحد من عبيده وقال: "تقدم أيها العبد!"

وعاد جنيد يخاطب الرسول قائلًا:

"إن ردي على طلب سيدك بايزيد باشا وسيد سيدك السلطان محمد، أنني اخترت هذا العبد زوجا لابنتي! فعبد جنيد أحب إلى قلبه من أعظم العظماء وأشهر القواد عند السلطان، فعد بهذا الرد إلى من أوفدك إلي، وقل للقوم إنني أرفض محالفتهم، وأحتفظ بابنتي زوجة لعبدي!".

ثار ثائر السلطان لهذه الإهانة، وغلت مراجل الحقد في صدر قائده بايزيد باشا لما لحق به من احتقار وامتهان، فقرر الاثنان استئناف الحرب، وحصر كل جهودهما في اقتحام أسوار أزمير، ودك حصونها، وتخريب وكر ذلك النسر الشرس العنيد، كما غضبت "علية" بنت جنيد، الفتاة الجميلة

الذكية النبيلة، للمعاملة التي عاملها بها أبوها، ورفضت أن تتزوج عبدًا من عبيدها، فرضه عليها أبوها نكاية بأعدائه، وإمعانًا في تحقيرهم، وإن كان في ذلك تحقير لها!

ولكن جنيد أرغم ابنته على الاستسلام للزوج الذي أراده لها، فازدادت نقمة الفتاة، ونشأ في صدرها حقد على الزوج وعلى الأب معًا، ثم شمل الحقد الأسرة كلها، لأن الأم والأخوة الخمسة والجدة أم جنيد، تكاتفوا جميعًا على التنكيل بالفتاة، وتنفيذ رغبة الأب وإراداته!

وبيتت الفتاة أمرًا.

فقد تغلبت جيوش السلطان على الحاميات المنتشرة في القلاع حول المدينة، وتزعزعت الأسوار منذرة بالانهيار، وشعر "جنيد" مرة أخرى بأنه سائر إلى هزيمة لا شك فيها، وأنه هالك لا محالة، فأوفد إلى السلطان، في مخيمه على مقربة من المدينة، أمه وزوجته وأبناءه الخمسة وبعض أنصاره المقربين، لكي يسترحموا صاحب العرش، ويطلبوا منه العفو عن صاحب أزمير مقابل تسليم المدينة والرحيل إلى حيث يريد السلطان من جنيد أن يرحل.

وكان محمد الأول طيب القلب، صافي النية، ينفر من الخصام، وسفك الدماء، فرحب بوفد عدوه ووافق على ما عرض عليه، ودخل على رأس جيشه إلى المدينة بعد أن فتح له جنيد أبوابها، وأمر بأن تدك الأسوار، وتهدم الأبراج... وفي القاعة التي استقبل فيها من قبل صاحب أزمير رسول القائد بايزيد باشا، استقبل السلطان محمد الأول خصمه الخاضع التائب، وحوله أفراد أسرته وأعوانه.

وعفا عنهم جميعًا، وخاطبهم قائلًا:

- إن الملك الصالح يغزو قلوب رعيته بالحلم والصبر واللطف وكرم الأخلاق، وهو غزو أوثره مرة على الغزو بالسيف والرمح، وعلى إخضاع القلوب بالقسوة والعنف، فأنتم جميعًا أحرار...

وأراد بايزيد أن يعود فاستأثر لنفسه بالمرأة التي رغب فيها زوجة، وهي فتاة فأصبح محرومًا منها وكانت من نصيب غيره، ثم أصبحت من جديد في متناول يده، ولكن "علية" رفضت إجابته إلى رغبته، قائلة: إنها خاصمت أباها؛ لأنه تصرف بها تصرفه بسلعة تباع في الأسواق، وهي تأنف الآن أن يتصرف بها القائد قاهر أبيها بالطريقة نفسها!

وهكذا الحق الزوج "أودولاس" بفوج الخصيان في قصور بايزيد، وألحقت الزوجة علية بالوصيفات في قصور السلطان.

أقام قره جنيد في المنفى ببلاد الصرب ثلاثة أعوام، لم يسمع عنه السلطان محمد الأول في خلالها سيئًا، وأعتقد أن الرجل تاب عن الخيانة، وأنه لن يعود إلى ما ألفه من عصيان وتمرد، ولكنه كان مخطئًا في اعتقاده.

ففي سنة ١٤١٨ ميلادية، الموافقة لسنة ٨٢١ للهجرة، ظهر "جنيد" مرة أخرى في ميدان الفتن والتآمر، وكان ظهوره في هذه المرة بجانب رجل آخر لا يعرف أحد من أين جاء، وأقنعه بأن يدعي أمام الشعب أنه "مصطفى" شقيق السلطان، الذي ظنه الناس ميتًا منذ سنوات مضت اعتقادًا منهم بأنه قتل في معركة أنقرة مع التتر، على حين أنه كان في الواقع أسيرًا فقط في أيدي التتار، ثم فر من الأسر، وجاء يطالب عرش أبيه، لأنه أكبر سنًّا من محمد الأول!

ونشبت حرب أهلية في أطراف السلطنة، وتولى جنيد قيادة الاتباع الذين التفوا حول مصطفى المطالب بالعرش، وتولى بايزيد باشا أيضًا قيادة الجيوش الباقية على ولائها لمحمد الأول.

وعزمت علية بنت جنيد أن تقدم على محاولة أخيرة، لحمل أبيها على العدول عن خيانة جديدة تضاف إلى سلسلة الخيانات التي اقترفها من قبل، ونال العفو بعد كل منها، فالتحقت متخفية بجيش بايزيد باشا الزاحف للقاء جيش جنيد، وخرجت ليلًا من المخيم قاصدة إلى حيث يضرب أبوها مضاربه، على أمل أن تلقاه بعد ذلك الفراق الطويل، وتلقى بنفسها على قدميه، وتغمرهما بالدموع، وتتوسل إليه بألا يقابل الحسنة بالإساءة، والوفاء بنكران الجميل، والخير بالشر!

ولكن علية لم تصل إلى جنيد، فقد رشقها الحراس بسهامهم قبل أن تتخطى حدود المعسكر، وهالهم أن يكون الغريب الذي قتلوه امرأة فحملوا الخبر إلى قائدهم، وحملوا معه الجثة مضرجة بدمها، فإذا بجنيد يعرف ابنته، ويدرك بثاقب بصيرته السبب الذي من أجله غامرت المسكينة بحياتها، فتولاه الاضطراب، وتشاءم مما حدث، ورأى فيه نذيرًا من الغيب بأن هذه الخيانة ستبوء بالفشل مثل غيرها، وإن هذه المرحلة من مراحل حياته المملوءة بالمآسي والفواجع، ستكون الأخيرة!

ولم يكن جنيد مخطئًا في مخاوفه، فقد هزم في المعركة شر هزيمة، وهزم معه مصطفى المطالب بالعرش.

غير أن السلطان محمد الأول، الذي جعل الرفق والرحمة أساسًا لمعاملاته

مع الناس، أيًّا كانوا وأيًّا كانت أغراضهم، لم يعدل عن الخطة التي رسمها لنفسه، ولم يعمد في هذه المرة أيضًا إلى الانتقام، بل إن جنيد هو الذي عدل عن خطئه، وتاب عن مسلكه.

فقد عفا عنه محمد الأول، وطلب إليه أن يختار المكان الذي يريد أن ينهي حياته فيه، فقال جنيد: إنه يرغب في قضاء البقية الباقية من أيامه في دير من أديرة النصارى، فأرسله السلطان إلى حليفه صاحب جزيرة ليمنوس، حيث حل الخائن التائب في دير العذراء، ولم يخرج منه قط منذ ذلك اليوم، وفيه وافاه أجله بعد عامين، وبعد عامين آخرين، أي في سنة ١٤٢١ ميلادية، الموافقة لسنة ٨٤٢ للهجرة، مات محمد الأول في مدينة أدرنة، في السادسة والأربعين من العمر، بعد ملك دام ثمانية أعوام.

أما علية بنت الخائن، فكان السلطان قد أمر بدفنها في المكان الذي قتلت فيه، وإقامة سبيل للماء على قبرها، ولا تزال آثار ذلك السبيل باقية إلى الآن، في خليج سلانيك، ببلاد اليونان!

فتش عن المرأة

كثيرًا ما تحكمت المرأة في مصير الإمبراطوريات والممالك..

فضلًا عن مصير الأفراد، منذ أو وجدت الخليقة!

عبثًا حاول الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر أن يستنهض همم الشعوب الغربية، وعبثًا كرر الاستنجاد بملوك أوربا وأمرائها ليسرعوا إليه، ويشدوا أزره في الدفاع عن عاصمة إمبراطورته، وإنقاذها من الغزو فقد خذلته الشعوب وخذله الأمراء والملوك، ولم يرفق بحاله غير حفنة من أبناء جنوي والبندقية، وكانتا في ذلك الوقت إمارتين مستقلتين. تملكان أسطولين يبسطان سلطانهما على البحر المتوسط.

أما القسطنطينية، عاصمة الإمبراطور، فقد هرعت إليها البقية الباقية من الحاميات الرومية التي انتزعت منها الجيوش العثمانية الغازية حصونها ومعاقلها، فتجمع منها لدى الإمبراطور الحائر المرتبك جيش لا يزيد عدده على عشرين ألف مقاتل، إذا أضيفت إليه النجدات الوافدة من بلاد المورة ومدينتي جنوي والبندقية، وماذا يستطيع جيش هذا عدد – وقد هبطت روحه المعنوية بسبب ما حل به من هزائم ونزل من أهوال – أن يصنع تجاه جيش كبير منتصر، يبلغ عدده مائة ألف مقاتل أو أكثر، ويقوده شاب بسم له الحظ، ورافقه الفوز من ميدان إلى ميدان، يجلس على عرش آل عثمان، وقد عزم عزمًا صادقًا على أن ينتزع من الروم عاصمة دولتهم، ويجعلها عاصمة لملكه؟

ذلك الشاب هو السلطان محمد الثاني، الذي لم يكن بعد قد تخطى الثالثة والعشرين من العمر، فقد ولد في سنة ١٤٢٠ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٣٣ للهجرة وخلف أباه مراد الثاني في سنة ١٤٥١ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٥٥ للهجرة، وبعد أن وطد قدميه في البقاع التي حول القسطنطينية، قرر مهاجمة المدينة للقضاء قضاء نهائيًّا على الإمبراطورية الرومية الشرقية.

وكان ذلك في ربيع سنة ١٤٥٣ للميلاد، الموافقة لسنة ٨٥٧ هجرية.

أما قسطنطين الحاجي عشر، من أسرة "باليولوغوس"، والمعروف في التاريخ باسم "دراكوزيس"، فكان في الثالثة والأربعين عندما تولى العرش في سنة ١٤٤٨، وفي الثامنة والأربعين عندما واجه وثبة الجيوش العثمانية على عاصمته، في عام ١٤٥٣ كان مقدرًا له أن يكون خاتمة القياصرة الروم في الدولة الشرعية!

طوق "محمد الثاني" مدينة القسطنطينية بجيشه برًّا، وحاول أن يسد عليها المنافذ بحرًا ليمنع وصول النجدات والمؤن إلى حاميتها، ولكن سفنه الصغيرة المفتقرة إلى قيادة مجربة، لم تستطع صد الأسطول الجنوي المؤلف من خمس سفن ضخمة تحمل سلاحًا وزادًا وخمسمائة من الرماة، فأقتحم هذا الأسطول مضيق الدردنيل ووصل إلى ميناء القسطنطينية سالمًا.

وكان جماعة من الغربيين يحاربون في صفوف العثمانيين مدفوعين بحقدهم على إمبراطور الروم، وبينهم فريق من البلغاريين والإيطاليين، وكان لقائد بلغاري ممن يعتمد عليهم محمد الثاني أخت تدعى "صوفيا" قصت ذات يوم على السلطان العثماني قصة القائد الصليبي "رينو دي شاتيون" الذي نقل

سفنه قطعًا مفككة بطريق البر من أرض الأردن إلى خليج العقبة، في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم جمعها من جديد، وأطلقها في البحر الأحمر لمهاجمة ساحل الحجاز، فعزم السلطان العثماني على أن يكرر في حصار القسطنطينية ما صنعه ذلك العقائد الصليبي، وعمد إلى نقل سفنه بطريق شقه رجاله خلال التلال والكثبان والوديان، خلف ضاحية "بيرا"، وصحا الروم ذات يوم فإذا بهم يجدون الأسطول العثماني داخل ميناء عاصمتهم، وقد استعد للقتال!

وأدرك قسطنطين أن حالته تسوء يوما بعد يوم، بل لحظة بعد لحظة، فعمد من ناحية إلى خزائن الدولة، وجعل يغترف منها بلا حساب، ويغدق الأموال ذات اليمين وذات الشمال، على أمل أن يتمكن من أحداث ثغرة في صفوف المهاجمين بفضل الخيانة وشراء الضمائر، ما دام لم يعد في وسعه أن يحدث تلك الثغرة بقوة السلاح!

وبحث "قسطنطين" عن المرأة، لأن المرأة كانت منذ نشأة الإمبراطورية تلعب في جميع المناسبات الحرجة دورًا لا يقل أهمية عن دورًا الرجال، بل إن المرأة كثيرًا ما تحكمت في مصير تلك الإمبراطورية العجيبة، فرفعتها أحيانًا إلى أوج العلاء، وهبطت بها أحيانًا إلى الحضيض.

في خلوة منعزلة، داخل بيت يشرف على البوسفور، جلست الأختان تتباحثان وتتناقشان وتتآمران.

الأولى اسمها "فانا" وهي كبرى الشقيقتين، سمراء ممتلئة الجسم عليها مسحة من الخشونة، والأخرى اسمها "اغانا" شقراء نحيلة القوام ناعمة

الأطراف تبدو هادئة ساكنة، وقد أرادت الأقدار للأختين مصيرين مختلفين، فالأولى تزوجت رجلًا من "جنوي" دخل في خدمة الإمبراطور، وأصبح ربانًا لسفينة من سفنه، والأخرى أحبت رجلًا عثمانيًّا فتزوجته في مدينة بورصة، ورافقته في روحاته وغدواته، وظلت معه عندما أصبح من المقربين إلى السلطان محمد الثاني، وهكذا فرقت الحوادث بين الأختين الروميتين، فواحدة أصبحت زوجة للقائد علي باشا، العثماني الذي أصبح في سنة ١٤٥٢ وزيرًا للسلطان محمد الثاني، وزوج الأولى كزوج الأخرى، ممن يحبون المال ويضحون في سبيله بكل شيء، فلا هذا مخلص وفي للسلطان، ولا ذاك مخلص وفي للإمبراطور، أما الأختان، فكل ما ترغبان فيه، أن تساعدهما الظروف والأحوال على توفير ما يكفي من مال لحمل الزوجين على ترك الخدمة عند هذا الفريق أو ذاك، والرحيل عن أرض أصبحت مسرحًا دائمًا للحروب والغزوات، وقضاء البقية الباقية من الحياة في ركن هادئ من أركان الشرق أو الغرب على السواء.

ودار الحديث حول هذا كله في تلك الخلوة التي جمعت بين الأختين فقالت "فانا":

- اسمعي يا اغانا، لقد قابلت الإمبراطور صباح اليوم، وأعطاني ما وعدني به من مال لأحمله إليك: ثلاثة أكياس في كل منها مائة قطعة من الذهب، وإذا أضفت إلى ما سبق لك أخذه من قسطنطين، فيكون مجموع ما دفعه لك صاحب قسطنطينية ألف ومائتين من الذهب الرنان، وهو على استعداد لأن يدفع لك أيضًا أضعاف هذا المبلغ، إذا قام زوجك علي باشا بتنفيذ ما طلبه منه الروم، ونحن

متفقون جميعًا أنت وزوجك، وأنا وزوجي، على أن ما يهمنا من هذه الحرب الطاحنة هو ما نجنيه من فائدة ونجمعه من ثروة، وسواء عندنا أن ينتصر العثمانيون ويهزم الروم، أو يفوز هؤلاء ويهلك أولئك!

وقالت اغانا:

– إن زوجي لا يزال على العهد الذي قطعه الإمبراطور الروم، فقد أعد عدته لتعطيل المدافع التي نصبها السلطان تجاه الأسوار من ناحية الباب المعروف باسم "الباب الخشبي"، وإذا ما تعطلت المدافع، وعلى الخصوص ذلك المدفع الضخم الهائل الذي تكفي قذائفه وحدها دك أي حصن من حصون المدينة، فإن الهجوم من هذه الناحية سيكون نصيبه الفشل، ومن يدري؟ فقد تتاح الفرصة، في أثناء الهجوم، لكي يثب واحد من رجال علي باشا فيضرب السلطان نفسه ضربة قاضية، أو يرشقه بسهم يكون فيه عضل الخطاب!

– وهذا ما يرجوه قسطنطين، ولكن، ماذا يطلب منا السلطان نفسه؟

– لقد نفذت الخطة التي وضعناها معًا بدقة وسرعة، فنحن نأخذ مالًا من الإمبراطور بوساطتك أنت، ونأخذ مالًا من السلطان بوساطتي أنا ونخدم هذا ونخدم ذاك في آن واحد!

– بل نخون هذا، ونخون ذلك في وقت واحد، هذا ما تقصدين!

– نعم، هذا ما أقصده، وهي لعبة خطرة، قد يكتشفها الإمبراطور، أو يفطن إليها السلطان، فيضيع علينا كل شيء، ونكون قد سعينا إلى حتفنا بظلمنا.

- إن هؤلاء الرجال أغبياء أكثر مما تظنين، وكر المرأة ودهاؤها يجعلان من أذكاهم دمية بين يديها تلعب بها كما تشاء، فلا تخافي ولا تترددي.

- لست خائفة ولا مترددة، ولكنني ما زلت عند الرأي الذي أفضيت به إليك أمس: وهو أن يكون هذا الذي نصنعه الآن آخر ما نقدم عليه من مغامرات وخيانات، وأن نرحل غدًا، أنت وأنا، وزوجك وزوجي، ونبتعد عن هذه المدينة قبل أن يقرر مصيرها النهائي في ميدان القتال، وأرى أن نذهب إلى إحدى الجزر، ثم ننتقل منها إلى مصر أو إلى إيطاليا.

- إن فيليب على استعداد للرحيل في الحال، وما عليك إلا أن تخرجي الليلة كالمعتاد، وتتصلي بزوجك، وترسمي معه خطة الهرب، ولكن بعد أن ينفذ ما وعد به من تعطيل المدافع، لكي نحصل من الإمبراطور على مبلغ آخر من المال.

- أما عندك أخبار جديدة ينبغي أن أبلغها السلطان؟

- نعم، عندي خبر على جانب عظيم من الأهمية، إن السفن العثمانية، كما تعلمين، قد رست الآن في داخل مرفأ "القرن الذهبي" أي في قلب الميناء، وقد وضعت مساء أمس خطة ترمي إلى إحراق هذه السفن في الليلة القادمة، وسيقدم على هذه المجازفة القائد الجنوي "جستينيغس" في سفينة أعدت لهذا الغرض، وسيباشر جستينياني تنفيذ خطته بعد غروب الشمس بساعتين، وزوجي واحد من

عشرات الرجال الذين وقع عليهم الاختيار للاشتراك في هذه المغامرة، ولكنه سيتخلف عن الصعود إلى السفينة، وينتحل لذلك عذرًا لم يبح به إلى فأحملي هذا الخبر إلى زوجك، وليبلغه إلى السلطان، لكي يتخذ الحيطة ويعد العدة لإحباط هذا الهجوم، الذي لو نجح لكان فيه القضاء على الأسطول العثماني في داخل الميناء، كالفار في داخل المصيدة!

- هذا خبر مدهش حقًّا، وسيتضاعف ثقة السلطان في زوجي عندما يطلعه عليه، مما يسهل علينا فيما بعد تنفيذ ما عهد به إلينا الإمبراطور بتنفيذه!

- نعم، نضحك على هذا ونضحك على ذاك، ونأخذ أموال الاثنين معا..!

وتعانقت الاختان الخائنتان، وافترقتا على موعد للقاء مقبل.

كيف كانت اغانا زوجة علي باشا الرومية، تخرج من المدينة وتعود إليها بدون أن يعترض طريقها أحد من الجانبين؟ وكيف كانت الأختان تلتقيان، ثم تفترقان، وتتصلان بالزوجين الخائنين مثلهما، واحد في مركز قيادة الروم، وواحد في مركز قيادة العثمانيين؟ وكيف كانتا تضعان الخطط الدقيقة لنقل أخبار كل من الفريقين المتحاربين إلى الفريق الآخر، وتضطلعان بهذه المهمة المزدوجة، ولا تثيران الشكوك لا عند هؤلاء ولا عند أولئك؟ هذا هو سر المرأتين الداهيتين فانا واغانا الروميتين.

فقد خرجت سفينة جستينياني من مربضها في الموعد المقرر لخروجها –

و جستينياني قائد البحارة والرماة من أبناء جنوى – واتجهت نحو الأسطول العثماني الذي نقله محمد الثاني برًّا إلى داخل القرن الذهبي، وكانت السفينة محملة بالمواد المتفجرة والملتهبة، ولكن العثمانيين كانوا على علم بما بيته لهم القائد الجنوي، وذلك بفضل التحذير الذي وصل إليهم في الوقت المناسب والذي حملته اغانا الرومية إلى زوجها علي باشا، ولهذا، فإن مغامرة الجنوي الباسل أسفرت عن فشل ذريع، فأحرقت سفينته بدل أن يحرق الأسطول العثماني، وغرق رجاله ولم يتمكن هو نفسه من النجاة إلا بأعجوبة.

فعاد إلى الشاطئ سباحة، وفترت همته منذ ذلك الوقت، وداخله اليأس، وارتبكت قيادته للمقاتلين، وانتهى الأمر بأن هجر الصفوف، وهرب من المدينة طلبًا للنجاة.

أما علي باشا، فقد لعب أيضًا دوره المزدوج، وبعد أن خان الإمبراطور عملًا بنصيحة زوجته، خان مولاه أيضًا فعمد إلى تعطيل المدافع تجاه الباب الخشبي، ولكن السلطان أمر بأن يهاجم المشاة ذلك الباب، ويقتحموه ويحطموه بالفؤوس.

وتدفقت جيوش العثمانيين على الأسوار، وتكدست أشلاء القتلى فاتخذ الأحياء من جثث الأموات سلمًا لتسلق تلك الأسوار المنيعة، ووثب بحارة السفن الراسية في القرن الذهبي إلى وسط المدينة، وفي التاسع والعشرين من شهر مايو سنة **١٤٥٣** للميلاد – الموافقة لسنة **٨٥٧** للهجرة – سقطت مدينة قسطنطينية في قبضة العثمانيين، ودخلها محمد الثاني فاتحًا منصورًا، وكان ذلك اليوم المشهود حدًّا فاصلًا بين حقبتين من التاريخ، وقتل الإمبراطور والسلاح بيده.

ووقع هذا الحادث العظيم بعد مضي ٢٢٠٥ عامًا على إنشاء الإمبراطورية الرومانية في الغرب، و١١٢٣ عامًا بعد إنشاء الإمبراطورية الرومية في الشرق.

ثلاثة أسماء لثلاث نساء! فخلف حصار القسطنطينية وسقوطها وعلى هامش التاريخ، دونت تلك الأسماء الثلاثة، ولعبت كل من النساء الثلاث دورها.

الأولى "صوفيا" البلغارية التي أفضت إلى محمد الفاتح بفكرة نقل سفنه برًّا من البحر إلى داخل ميناء القسطنطينية، فنفذ السلطان فكرتها وعمل برأيها؛ فكان ذلك سببًا من أسباب فوزه.

والثانية فانا الرومية زوجة فيليب الجنوي، التي أقنعت زوجها بخيانة سيده الإمبراطور طمعًا في المال الذي أغدقه عليه السلطان.

والثالثة اغانا الرومية أخت فانا وزوجة الوزير العثماني علي باشا، التي حملت زوجها على خيانة مولاه السلطان، طمعًا في المال الذي أغدقه عليه الإمبراطور قسطنطين.

ولكن خيانة المرأتين، وخيانة الزوجين، لم تبقيا مكتومتين، فقد اكتشف الإمبراطور خيانة القائد الجنوي فيليب فشنقه على أسوار المدينة.

واكتشف السلطان خيانة علي باشا فخنقه بيده في مساء اليوم الذي دخل فيه العاصمة الرومية.

أما المرأتان، فقد قتلنا بيد جندي تركي وجدهما مختبئتين في بيت فيليب

الجنوي، ومعهما كيس من الجلد وضعتا فيه الثروة الطائلة التي استولنا عليها من الإمبراطور والسلطان معًا، وقد أمر محمد الفاتح بتوزيع ذلك المال على البحارة العثمانيين، الذين هاجموا المدينة من داخل القرن الذهبي. وعلقت جثتا "فانا" و"أغانا" على الأسوار، وتركتا عليها طعمة للجوارح!

مصطفى الأسود

حاولت الجارية الوفية أن تنقذ حياة الرجل الذي أنقذ حياتها، ففشلت..

ولحقت به إلى عالم لا يتحكم فيه الطغاة الأجلاف!

- لقد أنقذتني من العار أولًا، ومن الموت ثانيًا، أيها الرجل النبيل والسيد المطاع، وليس لي في هذه الدنيا أب ولا أم ولا زوج ولا أسرة.

فما نفع الحرية التي تنعم بها علي؟

- ماذا تريدين إذن؟
- البقاء في كنفك، خادمة بين الخادمات، أو جارية بين الجواري، أو أسيرة بين الأسيرات! فحياتي ملك لك لأنك انتزعتها من مخالب الهلاك!
- اتبعيني إذن، وليكن لك ما تريدين!

كانت المتكلمة امرأة في نحو الخامسة والعشرين من العمر، ذات سمرة تقترب من السواد، قوية البنية، تبدو على وجهها دلائل الصحة والعافية والإقدام.

وكان المستمع إليها رجلًا من رجال القصر المرهوبي الجانب، الواسعين الشهرة، تخضع له الشعوب وتنقاد لأوامره؛ لأنه ينطق باسم صاحب العرش، ويحكم بالنيابة عنه: ذلك الرجل الذي يحبه الناس ويخشونه في آن معًا، هو الوزير الكبر، والصدر الأعظم "قره مصطفى" أو مصطفى الأسود!

فقد كان في ذلك الوقت مارًّا بأسواق الآستانة متنكرًا كعادته، فرأى جماعة من النخاسين يسوقون أمامهم قافلة من العبيد والجواري، وكان واحد من أولئك القساة الأجلاف يضرب امرأة عجزت عن اللحاق برفاقها ورفيقاتها، فوثب عليه الوزير قره مصطفى، ولفحه بسوطه على وجهه، وأنقذ المرأة من بين يديه، ونقده ثمنها ذهبًا، وأمر الجند بأن يسوقوه إلى السجن.

وحفظت الأسيرة له صنيعه، فرجته أن يحتفظ بها، وألا يعيد إليها الحرية لأنها لا تعرف ماذا تصنع بها!

أما المرأة، فاسمها "فاكهة" وهي لا تعرف من أمرها غير أنها بيعت في أسواق الرقيق طفلة صغيرة، وأن بائعيها جاءوا بها من الحبشة أو السودان، فانتقلت من يد إلى يد...

وأخذ "قره مصطفى" الجارية "فاكهة" معه إلى قصره حيث التحقت بمن فيه من خدم وعبيد ونساء...

كان السلطان إبراهيم الأول، ابن السلطان أحمد الأول، قد تسلم عرش آل عثمان في سنة ١٦٤٠ ميلادية – الموافقة لسنة ١٠٤٩ للهجرة – خلفًا لأخيه مراد الرابع، ولم يكن ذا رغبة في قيادة سفينة الدولة بنفسه، فترك الأمر والنهي لأمه السلطانة الوالدة "قوسم" التي عهدت إلى قره مصطفى، أو مصطفى الأسود، بمنصب الصدارة العظمى.

وكان قره مصطفى من أصل هنغاري، ثم اعتنق الإسلام وهو في ريعان الشباب، وعمل جنديًّا بسيطًا في فرقة "يني تشيري" أو الانكشارية، وارتقى من رتبة إلى رتبة حتى بلغ الذروة...

وقد قضى هذا الداهية الشجاع على مقاليد المور بيد من حديد، فأعاد تنظيم الإدارة والجيش والمالية، وهزم أعداء الدولة العثمانية في الحروب، واسترجع ما فقده أسلافه من ممتلكات وراء البحار، وضمن العدالة والإنصاف للشاكين والمظلومين، ووضع حدًّا للسرقة والرشوة وابتزاز أموال الرعية، ولم يكن هذا مما يرضي الولاة وعمال السلطان في المدن والأقاليم القريبة والنائية، فتآمروا عليه، وراحوا يدسون له في الخفاء، ويوغرون صدر السلطان الشاب عليه، للتخلص منه.

ودخل عليه إبراهيم ذات يوم، وهو في مداولة مع وزرائه، وانتهره قائلًا:

- لقد طلبت منك إحضار الخشب اللازم لحريم القصر في هذا الشتاء، وقلت لي إن خمسمائة مركبة محملة خشبًا في طريقها إلى العاصمة، وقد مر شهر كامل ولم تصل المركبات بأخشابها بعد، فهل بلغ بك الاستهتار بحريم السلطان إلى هذا الحد؟

فوقف الصدر الأعظم، وأجاب بصوت هادئ:

- أيها المولى المعظم المطاع، إن الدولة معرضة لأخطار جسيمة، وأمامنا من الأمور الهامة ما يسترعي التفاتنا أكثر من أخشاب الحريم في هذا الشتاء!

وأدار السلطان ظهره، وانصرف غاضبًا!

وأنب الوزراء رئيسهم على مخاطبة إبراهيم بتلك اللهجة، فأجابهم قائلًا:

- أما كان الدافع إلى ذلك ما أحمله له في صدري من محبة وإجلال؟

لقد قلت له الحقيقة! أفكان يجب علي أن أعمد إلى التزلف، فأكذب وأتملق؟

وهمس وزير في أذن آخر:

- أخشى أن يكون هذا اليوم آخر أيام الرجل الحر الشريف!

ولم يكن الوزير مخطئًا في ظنه.

فقد كان ذلك اليوم في الواقع آخر أيام مصطفى الأسود!

طلعت شمس اليوم التالي، فإذا بالسلطان يدعو الصدر الأعظم للمثول بين يديه، فلبى قره مصطفى الدعوة، وأسرع إلى قاعة العرش حيث كان إبراهيم في انتظاره، وحوله زمرة من زبانيته المخصصين لاغتيال من تحل به نقمة البادشاه!

وأدرك الصدر الأعظم أن ساعته قد دنت، ولكنه تجالد ووقف يناقش مولاه في كل كبيرة وصغيرة من التهم التي وجهها إليه، وكلها تهم مختلقة كاذبة.

وصاح إبراهيم في النهاية مقاطعًا وزيره:

- أنت خائن ومخادع، وسوف أجد من هو أجدر منك للاضطلاع بشئون الدولة.. أين ختم الصدارة؟

فنزع مصطفى الأسود الختم من عنقه، وانحنى باحترام، وقدمه للسلطان بدون أن يفوه بكلمة، ثم نهض، وتراجع إلى الباب وانصرف.

وأشار إبراهيم إلى زبانيته، ففهموا الإشارة، وتبعوا الوزير من حيث ذهب.

وكانت مهمة أولئك الزبانية أن يخنقوا المغضوب عليهم بحبال من القنب الدقيقة الصنع.

وصل قره مصطفى إلى قصره، ولم يطلع أحدًا على ما حدث له غير الجارية "فاكهة" فقد ناداها إلى حجرته، وقص عليها ما صنعه به السلطان:

– لقد قضي الأمر يا فاكهة وعزم السلطان على قتلي، ولا يدهشني أن يكون الزبانية في طريقهم الآن إلى هذا القصر وإلى هذه الحجرة، لكي يلفوا حول عنقي حبالهم، ويخمدوا أنفاسي، ويجروا جثتي إلى الخارج، ثم يحملوها إلى قصر البادشاه، ويثبتوا له أن الوزير الذي خدمه بإخلاص قد قتل؛ لأنه لم يكذب ولم يخن ولم يسرق!

وألقت الجارية بنفسها على قدمي سيدها، وغسلتهما بالدموع، ثم انتفضت فجأة، وانتصبت على قدميها، وقالت بصوت ينم عن عزم وإقدام:

– لا تستلم لليأس يا سيدي، ولا تدع الخوف يزعزع رباطة جأشك المهددة، وما دام القتلة لم يصلوا بعد، فعلينا أن نسعى إلى الخلاص ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، لقد فكرت في كل شيء، وحسبت حسابًا لكل احتمال، على حين كنت أنت منصرفًا إلى تدبير شئون هذه الدولة وإعلاء شانها.

– ماذا تعني؟

– أعني أنني أعددت للرحيل عدته، وفتحت في ركن من أركان الحريم بابًا سريًّا، يؤدي إلى سرداب يوصل إلى الساحة المجاورة لقصرك من الخلف! فاتبعني لنهرب معًا، فإن وفقنا إلى الخروج من المدينة،

أصبحنا في أمان، وإن لحق بنا الجند، فتلك إرادة الله.

ونفرت من عين مصطفى دمعة مسحها بكم ثوبه، ونهض صامتًا، ولحق بالمرأة الطيبة القلب المخلصة الوفية.

وقادته فاكهة إلى الباب والسرداب، وما مرت لحظات حتى كان الاثنان قد خرجا من القصر، ووصلا إلى الساحة حيث شاءت الأقدار أن يكون جماعة من التجار قد تركوا أكداسًا من الأعشاب اليابسة والحطب الجاف.

ولكن جنود السلطان كانوا قد أحاطوا بالمكان من كل جانب، فاختبأ الصدر الأعظم الهارب والجارية المرافقة له وسط تلك الأكوام المتقاربة.

وتصاعد صياح الخدم والنساء في داخل القصر!

فقد اقتحم الجند أبوابه، وحطموها بهراواتهم، وانطلقوا في القاعات والحجرات يبحثون عن الوزير، ويروعون سكان القصر ويضربونهم، ويجرون النساء من شعورهن لحملهن على ذكر المكان الذي لجأ إليه قره مصطفى.

ولم يجدوه في داخل القصر، فانتشروا في خارجه يسألون، ويواصلون البحث.

وعثروا عليه في النهاية قابعًا في مخبئه، فانتزعوه منه، وجرد الوزير سيفه ووقف يدافع عن نفسه، فقتل من الجند عشرين رجلًا، ولكنهم تكاثروا عليه، ثم أوثقوه وقادوه إلى ميدان خوجة باشا، حيث خنقوه بحبالهم عملًا بالتقاليد عند البركة المعروفة باسم قره علي!

وتركوا الجثة على حافة البركة، ونادى بعضهم بعضًا ليتشاوروا فيما هم صانعون بعد أن أدوا مهمتهم.

وفجأة برزت في الميدان امرأة جاحظة العينين محلولة الشعر، خيل للجند أن بها مسًّا من الجنون، واقتربت من أحدهم، ونزعت منه خنجرًا كان بيده، ووثبت إلى حيث الجثة، وصاحت مخاطبة القتيل الذي تدلى لسانه من فمه:

- لقد وعدتك يا سيدي العزيز بأن أموت في يوم موتك، وهنا جئت أبر بالوعد!

وأغمدت فاكهة النصل في صدرها، وسقطت على الجثة الهامدة جثة هامدة!

بقرة السلطان

أراد البادشاه أن يتزوج أضخم امرأة عرفها البشر، فكان له ما أراد!

كان الليل قد انتصف عندما أوفد السلطان إبراهيم أحد خصيانه المقربين إلى يوسف أغا، وأحمد أغا، وكوير أغا، ليبلغهم رغبة مولاه في أن يوافود بلا إبطاء في حجرة نومه، وأسرع الرجال الثلاثة مهرولين، تلبيه لأمر البادشاه.

أما يوسف أغا فهو أسير روسي أحبه السلطان، وأعتقه وألحقه خدمته في القصر، وأما أحمد أغا، فهو دجال هنغاري، عرف كيف يستحوذ على رضا السلطان، ويستدر عطفه، فألحقه إبراهيم أيضًا بخدمته، وأما ثالث الثالوث فهو اليوناني كوير موسيلوغلي المشعوذ الذي يبتلع النار ويزرع في جسمه الدبابيس والخناجر بدون أن تسيل منه نقطة دم واحدة، والسلطان يرتاح إلى مجالسة هذا القزم المهرج. وينزله في القصر منزلة الإخصاء، وقد قطع الثلاثة كل علاقة بأوطانهم وقومهم ودينهم، فأصبحوا مسلمين من رعايا السلطان إبراهيم الأول، وموضع ثقته، وأحب رجال حاشيته إليه!

أولئك هم الذين دعاهم السلطان إلى حجرة نومه في تلك الليلة، وكان ينتظرهم مرتديًا ثوبًا من الفرو الناعم، وحوله سرب من الجواري البيض، حاملات للمباخر والقماقم، وقد عبقت الحجرة بالروائح الطيبة والعطور النادرة.

وانحنى الرفاق الثلاثة، وقبلوا الأرض بين يدي سيدهم وولي نعمتهم وقال كوير اليوناني:

- نحن في خدمة البادشاه ورهن إشارته في كل ساعة من ساعات الليل والنهار.

ورحب بهم إبراهيم قائلًا:

- لم يساورني شك في ذلك، ولهذا، فقد عهدت إليكم من قبل بأكثر من مهمة، وما دعوتكم الآن إلا لكي أعهد إليكم بمهمة جديدة من هذا النوع.

- نحن طوع أمرك يا مولاي، ومهما تكن الصعاب القائمة في سبيل تلك المهمة، فإننا سوف نذللها ونتغلب عليها.

- اسمعوا: لقد تعبت من النظر إلى هذا العدد الذي لا حصر له من النساء، أريد شيئًا جديدًا، شيئًا لم تقع العين على مثله بعد في حرم السلاطين، ولم يتمتع به أحد فيما بعد من خلفائي!

ونظر الثلاثة بعضهم إلى بعض، بدون أن يفهموا ما يريده منهم السلطان، واستطرد إبراهيم قائلًا:

- لا تتبادلون النظرات فسوف تفهمون! إنني أريد منك أن تجدوا لي امرأة تمتاز عن جميع نساء القصر، من سراري ومحظيات وأماء، لا بحسنها، ولا بجمالها، ولا بدلالها، ولا بشيء مما يمت بصلة إلى الدلال والجمال والحسن، بل بشيء يعده الناس في عرفهم الأعوج من ظواهر القبح والبشاعة، وأعده أنا، في نظري الخاص إلى المرأة، من أروع مستلزمات الكمال فيها!

وعاد الثلاثة إلى تبادل النظرات بدون أن يفهموا، فصاح إبراهيم بهم بصوت ينم عن الغضب: "اسمعوا إلى النهاية لكي تفهموا وتدركوا، وتعلموا ما أريد: إن النساء اللواتي في القصر جميعًا يخضعن لقوانين الطبيعة، والمرأة التي أتوق إلى اقتنائها يجب أن تكون خارجة عن القوانين، وفلتة من فلتات الطبيعة!".

وقال اليوناني: "بدأنا نفهم يا مولاي".

وواصل إبراهيم التعبير عن فكرته: "أريد منكم أن تبحثوا لي عن امرأة تكون أطول النساء قامة، وأضخمهن جسمًا، امرأة يكون لها صوت كزئير الأسد، وذراعان من الحديد، وفخذان كهذه الأعمدة التي يقوم عليها سقف الحجرة، وفم يبتلع الدجاجة في لقمة واحدة، ولسان أطول من لسان البقرة!"

قال السلطان هذا وهو يحدق البصر في رجاله الثلاثة، فأدرك عندما وصل إلى هذا المقطع من كلامه، إنهم أوشكوا أن يضحكوا، فضحك قبل أن يسبقوه!

وفعل الثلاثة مثله، ولكنه قاطعهم مستأنفًا حديثه: "قلت إنني أريد لسانها أطول من لسان البقرة، وأضيف إلى ذلك أنني أريدها كلها مثل البقرة، وأريد أن يقول الناس في مستقبل الأيام، وحقبة بعد حقبة: إن السلطان إبراهيم الأول تزوج أضخم امرأة عرفها العالم من قبله ومن بعده! اذهبوا".

وذهب يوسف أغا، وأحمد أغا، وكوير موسليوغلي، وهم يتساءلون: "ألا يزال عقل السلطان في رأسه، أم انطلق منه بلا أمل في رجعة؟"

ولكنهم أدركوا أن عودتهم إلى القصر معناها الموت الأكيد، إذا لم يجلبوا إليه معهم أضخم النساء!

وطافوا في أرجاء المملكة طولًا وعرضًا، وهبطوا المدن وبحثوا في القرى والمزارع والحقول، وبثوا الأعين في كل مكان.

وكللت في النهاية مساعيهم بالنجاح، فعثروا في جبال أرمينية، وفي أسرة رقيقة الحال على فتاة دون العشرين من العمر، تتوافر فيها جميع الشروط التي فرضها عليهم السلطان في الليلة التي ظنوا فيها أن ساعتهم الأخيرة قد دنت!

رفض أهل الفتاة أن يسلموها لزبانية السلطان، فاختطفوها وحملوها إلى مولاهم!

وطار إبراهيم الأول من الفرح!

فقد كانت الفتاة الأرمنية حقًّا فلتة من فلتات الطبيعة!

ونفح السلطان رسله الثلاثة مكافأة عظيمة، وقال لهم راضيًا مسرورًا: "إنها بقرة بشرية كما أردتها أن تكون!"

وعرفت المحظية الجديدة بين النساء والخدم ورجال الحاشية باسم "بقرة السلطان" وكانت جديرة بهذه التسمية!

فإن تلك البقرة التي أرادها إبراهيم خليلة له، على أمل أن تلد له ابنًا فينعم عليها بلقب سلطانة، ويعدها زوجة من زوجاته، كانت تبلغ من الطول نحو مترين، وتزن من الأرطال ما يساوي في حساب هذه الأيام ثلاثمائة كيلو جرام.

وقد أصدر السلطان أوامره لإعداد جناح خاص لها في أحد قصوره، فاضطر العمال والصناع إلى توسيع الأبواب وتعلية عتباتها، وصنعوا لها سريرًا

بحجم خمسة أسرة عادية من أسرة الحريم، وكانت تلتهم في وجبة واحدة خروفًا كاملًا، وتشرب "زلعة" من الماء – وخصها إبراهيم بثلاثة من الطهاة، وعشرة من الخدم، وعشر من الجواري، لتأمين راحتها وإعداد الطعام والشراب لها.

وانصرف إبراهيم الأول بكليته إلى التمتع بذلك المتنقل من اللحم والشحم، ونسي بين أحضان البقرة الأرمنية، زوجته الوحيدة طرخان ومحظياته وجواريه، بل إنه اتخذها دون سواها مرثدة له في كل كبيرة وصغيرة، وأهمل من أجلها نصائح أمه السلطانة الوالدة "قوسم" وإرشاداتها، مما جعل الأم والزوجة والمحظيات والجواري يتفاهمن ويتأمرن على الغربية التي جاءت تنغص عليهن العيش.

حاولت أمه أن تبعده عن تلك المرأة العجيبة، أو أن تضعف من نفوذها عليه، فكانت النتيجة أن منح إبراهيم البقرة الأرمنية ولاية دمشق وأمر بأن تحمل لقب "والي خاتم!".

وأدركت السلطانة الوالدة قوسم أنه لم يبق أمامها غير وسيلة واحدة للتخلص من المرأة، وهي الوسيلة التي كان الالتجاء إليها شائعًا في ذلك العصر.

– اسمح لها يا بني أن تلبي دعوتي، وأنا الكفيلة بحمل جميع نساء القصر على ملاطفتها والتحبب إليها.

وصدق الابن أمه، ويسمح لحبيبته الضخمة بأن تذهب لقضاء الليل في الجناح المخصص للسلطانة الوالدة، حيث أعدت قوسم وليمة للنساء بلا تفريق ولا تمييز.

وأكلت المدعوات وشربن هنيئًا مريئًا، وللمرة الأولى منذ دخولها قصر السلطان رأت الأرمنية الوجوه تبتسم لها وترحب بها.

فقبيل منتصف الليل، دخل القاعة التي جلست فيها قوسم وزوجات السلطان والمرأة المحتفى بها، عشرة من خصيان السلطانة الوالدة، وفي يد كل منهم حب من القتب.

وأحاط بها الخصيان فحاولت النهوض ولكنها لم تستطع، وامتدت نحوها عشرون من الأيدي بحبال القتب، والتفت الحبال حول ذراعيها وصدرها وعنقها، فجأرت البقرة البشرية، وملأ خوارها القاعة الفسيحة!

وانهار الجبل المتحرك على الأرض كومة هامدة.

وانطلقت النساء نحو جناح السلطان صارخات باكيات، وقد حللن شعورهن ولطمن خدودهن، ناعليات حبيبة إبراهيم التي أسرفت في التهام الطعام والشراب فماتت من التخمة!

وصدق إبراهيم أمه، وبكى الحبيبة، وحبس نفسه في حجرته شهرًا كاملًا.

ثم بحث عن غيرها بين نسائه الكثيرات، وبين أنواع الحسان التي كان النخاسين يسوقونها إليه يومًا بعد يوم، فوجد ضلته المنشودة في امرأة أخرى أنسته البقرة الأرمنية التي ماتت خنقًا، والتي لم يعرف العالم في الماضي — وربما لا يعرف في المستقبل — امرأة في ضخامتها.

وفي سنة ١٦٤٨، ثار الجيش على السلطان إبراهيم، وتآمر الوزراء والعلماء مع الثائرين، بل قبل أن السلطانة الوالدة نفسها اشتركت في تلك

المؤامرة، فدخل الخصيان على السلطان في حجرته، وخنقوه أيضًا بحبل من القنب، عملًا بالتقاليد المرعية في تصور السلاطين.

حدث ذلك في سنة ١٦٤٨ ميلادية، الموافقة لسنة ١٠٥٨ للهجرة، وكان إبراهيم الأول في الواحدة والثلاثين من العمر، ولم يمض على ارتقائه عرش آل عثمان غير ثمانية أعوام.

الراهب عثمان

عاش طفلًا في قصور السلاطين، وانقطعت أخباره في آخر حياته في أديرة الرهبان!

قيل إن اسمها "كوكب" وقيل "زعفران" وقيل أيضًا "حب هان" فإن المؤرخين القلائل الذين ذكروا اسمها، لم يجمعوا على قول واحد، ولكنهم أجمعوا على أنها كانت أجمل الجواري في قصور السلاطين، وأبعدهن ذكاء، وأوسعهن حيلة، وهذا ما جعلها تقوم في حياة السلطان إبراهيم العثماني بدور حسدتها عليه الجواري الأخريات، بل حسدتها عليه زوجته الوحيدة طرخان ونساؤه العديدات.

ولم تكن هذه الجارية ملكًا للسلطان بل لرئيس "الأغوات" واسمه "سوسن أغا" كان أولئك الخصيان كان لهم في قصور الآستانة حريمهم مثل أسيادهم الجالسين على العرش، ومثل الذين سبقوهم من الخصيان في قصور الفراعنة وأباطرة الروم بالقسطنطينية، وكانوا يتمتعون بهذا الحق كاملًا، بل يسرفون في اقتناء الحسان كما يسرف الأغنياء في اقتناء التحف، لا لغرض إلا النظر إليهن، والتفتن في تزيينهن وتزويقهن، واتخاذهن أداة للتسلية، أو التنعم بمواهبهن كراقصات أو مغنيات أو سميرات.

ذلك كان شأن سوسن أغا مع جاريته الحسناء اللعوب كوكب، وذلك كان شأن كوكب مع سيدها رئيس الخصيان في قصر إبراهيم، ولنطلق عليها نحن اسم "كوكب" ما دام المؤرخون لم يفرضوا علينا اسمًا معينًا من أسمائها الثلاثة.

وكانت كوكب عندما اشتراها سوسن من سوق الرقيق بالآستانة في نحو الثامنة عشرة من العمر، فقصت عليه قصتها وقالت: إنها ابنة تاجر رومي، وإنها تزوجت جنديًّا من جنود البندقية وقع معها أسيرًا في إحدى الغزوات، فبيعت في سوق الرقيق، وأضافت أنها على وشك أن تضع مولودًا هو الثمرة الأولى لذلك الزواج الذي انتهى بالفراق.

وصدق سوسن روايتها، ولم يكن ماضي المرأة ليهمه أو يشغل باله، بل كان حاضرها ومستقبلها موضع اهتمامه وتفكيره.

ووضعت كوكب طفلًا تبناه سوسن، وعهد إلى أمه بإرضاعه والاحتفاظ به في الجناح المخصص له ولنسائه في القصر، ووعدها بأنه سيعنى بتربية الطفل، ويعده ليكون في مستقبل الأيام بعد أن يشب ويكبر واحدًا من جنود السلطان، بل واحدًا من قواد جيشه، وأنه سيسميه مثله "سوسن" ويضمن له حياة هنيئة وشهرة واسعة.

وكانت الجارية بحكم إقامتها في القصر، وبحكم وظيفة سيدها الجديد، كثير الاختلاط بنساء السلطان وجواريه، فوقع نظر إبراهيم عليها ذات يوم وهي تلعب النرد مع بعضهن في جناح الحريم، وكانت تلك النظرة كافية لإثارة رغبته في الاستئثار بها دون رئيس الخصيان!

وكان إبراهيم الأول منصرفًا بكليته إلى اللهو والاستمتاع بملاذ الحياة، تاركًا لأمه السهر على مصالح الدولة، وتسيير كفة الحكم، ولم يكفه أن تعج قصوره بالنساء من كل جنس ولون، بل كان دائم البحث عن وجه صبوح جديد، أو جسم بض جديد، أو ضرب من المتعة جديد!

لكن حبه لسوسن أغا وحرصه على مراعاة شعوره وإحساسه، ورضاه عن ذلك الخادم الأمين المتفاني في إخلاصه كل ذلك جعله يتلمس الوسائل المطلقة الرقيقة، فلا ينتزع الجارية من سيدها انتزاعًا بل يستدرجها إليه استدراجًا.

ونجحت الحيلة، فقد دعا السلطان إلى مخدعه ذات يوم رئيس خصيانه سوسن، وقال له بلهجة ملؤها العطف والحنان:

- إنك يا سوسن أحب الخدم إلي، فلا غرابة إذن في أن يكون لجواريك عندي منزلة خاصة، وأنا شديد القلق على ابني محمد، الطفل المحبوب الذي رزقته من السلطانة طرخان، والذي لا يزال رضيعًا وفي حاجة إلى المحبة والعناية، ولذا، فقد خطر لي أن أعهد به إلى مرضع أثق بها، لكي تحبه وتعني به، وتشاء الأقدار أن تكون الجارية المرضع في كنفك أنت يا سوسن!
- ومن تعني يا مولاي؟
- أعني الجارية "كوكب" التي قيل لي إنها وضعت طفلًا تبنيته أنت!
- كوكب؟
- نعم! هي التي اخترتها لترضع ابني مع ابنها فهل تبخل علي بذلك؟
- إنني وجواري ملك لمولاي، ينصرف بنا كما يشاء، فحياتنا وموتنا ومصيرنا بين يديه!

وفي اليوم التالي، كانت "كوكب" قد انتقلت إلى حريم السلطان، لا

لترضع ابنه فقط، بل لتصبح واحدة من نسائه ومحظياته الكثيرات.

وأدرك سوسن بعد فوات الوقت أن سيده لعب لعبة جازت عليه، وأنه فقد جاريته المختارة إلى الأبد، ولكن ما حيلته، وإرادة البادشاه فوق كل إرادة، وكلمته فوق كل كلمة؟

وأدركت السلطانة طرخان في الوقت ذاته أن إبراهيم لم يجيء بالمرضع ليريح زوجته من عناء الاهتمام بابنها محمد والسهر عليه، بل ليحل الجارية في قلبه محل والدة الطفل، وبعدها لتكون في المستقبل سلطانة مثلها، وأما الولد قد يسلب ابنها حقه في وراثة العرش بعد أبيه.

بل إن السلطانة أدركت فوق ذلك أن إبراهيم جعل منذ الأسبوع الأول، يفضل ابن الجارية على ابنه، فعاتبته على ذلك وأنبته، ولكن السلطان هزأ بها، وقال إنه لا يسمح لامرأة من نسائه بأن تبدي رأيًا في سلوكه داخل الحريم، ومعاملته لبقية النساء، فحقدت طرخان عليه وعلى المرضع في آن معًا، وأقسمت أن تنتقم من الجارية انتقامًا يعيد الأمور إلى نصابها.

وحدث مرة أن كان السلطان جالسًا على ضفة بركة في حدائق القصر، وحوله سرب من جواريه ومحظياته، يلقي بهن الواحدة بعد الأخرى في مياه البركة، ويتفرج عليهن وهن يحاولن العودة سباحة إلى اليابسة، وكانت كوكب جالسة بجانبه وعلى صدرها ابنه محمد، يداعب ثدي المرضع بشفتيه الناعمتين الصغيرتين، في حين كان السلطان يداعب بأنامله شعرها المسترسل على كتفيها، ونزلت السلطانة طرخان إلى الحديقة فرات ذلك المنظر المثير، ولم تتمالك أعصابها، فاندفعت نحو غريمتها مهددة متوعدة، فما كان من

السلطان إلا أن زجرها بعنف، ثم نزع الطفل عن صدر مرضعه وألقاه في الماء غاضبًا مزمجرًا.

وأوشك الطفل أن يغرق، لو لم تتداركه الجواري وينتشلنه من البركة قبل فوات الوقت.

وأصيب ابن السلطان وولي عهده في ذلك الحادث بجرح في جبهته، ظل أثره طول حياته، كدليل محسوس على قسوة أبيه.

تشاور سوسن وجاريته فيما أوصلهما إليه تحكم السلطان في مصيرهما، والورطة الخطرة التي وقعا فيها، وتآمر النساء الحريم عليهما، وعزمت السلطانة طرخان أم محمد، والسلطانة الوالدة "قوسم" أم إبراهيم على الانتقام من "كوكب" فقال سوسن لجاريته المحبوبة، التي لم يحمل موجدة عليها لأنه أدرك أن السلطان أرغمها إرغامًا على الرضا لإرادته..

– لقد أصبحت مهددة في هذا القصر يا كوكب، بقدر ما أصبحت حياتي أيضًا مهددة فيه، ولا أزال على العهد الذي قطعته على نفسي نحوك ونحو ولدك، ولا حول لنا هنا ولا طول، ما دامت أم السلطان وزوجته ونساء حريمه يتألبن علينا ويتآمرن على إهلاكنا في الخفاء، فخير لنا أن نرحل، وأن نقضي بقية العمر في مأمن من الدسائس، وفي بلد بعيد يتوافر لنا فيه الأمن والهناء.

وقالت كوكب والدموع تترقرق في عينيها النجلاوين:

– إذا كنت باقية على العهد يا سوسن، فكوكب أيضًا باقية على عرفان الجميل، وهي ملك لك لا ملك للسلطان، وإن كان السلطان قد

استحوذ عليها بالضغط والإكراه، فحيثما تذهب أنت فسأذهب وحيثما تعش أنت فإني سأعيش، وحيثما تمت أنت أدفن نفسي بقربك في التراب!

ووضع الاثنان خطة الهرب، خطة محكمة لا بد أن يخدع بها السلطان كما خدعت بالأمس كوكب وخدع سوسن بخطة السلطان يوم اتخذ الجارية مرضعًا لابنه.

فقد طلبت كوكب من إبراهيم أن يسمح لها بالسفر إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج، وأن تصحب معها ابنها وسوسن رئيس الخصيان.

ووافق السلطان على ذلك ولم يفطن إلى أن طلب الجارية ما هو إلا حيلة للتخلص من الأسر والابتعاد عن القصر، بل عن الآستانة نحو الحرية.

وركب سوسن رئيس الخصيان سفينة أقلعت به من القرن الذهبي، وعليها كوكب وابنها وجميع من كان في حوزة سوسن من الجواري، وما كان يملكه من تحف ومال.

وما كادت تخرج من مضيق الدردنيل، وتنساب بين الجزر المتناثرة في بحر أيجة، حتى داهمتها السفن التابعة لفرسان مالطة، فاشتبكت معها في قتال مرير، ودافع سوسن عن نسائه وأمواله بشجاعة وإقدام.

ولكن السفينة لم تكن مجهزة لخوض غمار معركة، بل لاجتياز البحر في هدوء وسلام إلى موانئ سورية، فغلب بحارتها على أمرهم، واستولى فرسان مالطة على السفينة وما فيها، وأسروا رجالها ونساء سوسن والجارية كوكب وابنها الصغير.

أما رئيس الخصيان، فقد قتل على ظهر السفينة، وهو يحاول حتى النفس الأخير منع الأعداء من الصعود إليها..

وبلغ خبر هذا الاعتداء البشع مسامع السلطان، فثار ثائره، وأقسم أنه سيثأر لمرضع ولده ورئيس خصيانه، ولما كانت جزيرة مالطة في ذلك الوقت خاضعة لسيادة البندقية، فقد أعلن السلطان إبراهيم الأول الحرب على هذه الجمهورية، وجرد جيشًا وأسطولًا لمهاجمة ممتلكاتها.

وبدأت الحرب بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية في صيف سنة ١٦٤٥ ميلادية، الموافقة لسنة ١٠٥٤ للهجرة، وانتهت بعد بضعة أعوام بانتصار العثمانيين على أعدائهم انتصارًا رائعًا.

وكان السلطان إبراهيم الأول، عندما أعلن الحرب على البندقية بسبب ذلك الحادث، في الثامنة والعشرين من العمر، وكان يجهل أن رئيس خصيانه والجارية كوكب قد رحلا عن الآستانة هربًا منه، بل أعتقد أنهما ذهبا إلى الحج على أن يعودوا إليه بعد أداء الفريضة!

ومات إبراهيم في سنة ١٦٤٨ ميلادية الموافقة لسنة ١٠٥٨ للهجرة، قبل انتهاء الحرب مع البندقية، فواصل وزراءه القتال في عهد ابنه وخليفته محمد الرابع، الذي ارتقى العرش وهو في السابعة من العمر.

أما فرسان مالطة، فقد ساقوا الأسرى معهم إلى جزيرتهم ثم إلى البندقية، بعد قتل سوسن واستيلائهم على سفينته.

واعتقدوا أن الطفل الذي أسروه مع أمه إنما هو الأمير محمد ابن السلطان إبراهيم الأول، وأن الجارية إحدى زوجات السلطان، وهللوا لهذا

النصر اعتقادًا منهم أن الباب العالي سيفتدي الأسير الصغير بالمال أو بعقد صلح لمصلحة البندقية.

غير أن الحقيقة تجلت لهم بعد أن عاد إليهم الرسل الذين أوفدهم إلى الآستانة، فأدركوا خطأهم، وعلموا أن الطفل ابن جارية من أب مجهول، وليس ابن إبراهيم ووارث عرش السلاطين.

ولكنهم لم يعيدوه إلى الآستانة، بل احتفظوا به مع أمه، التي ماتت حسرة وكمدًا بعد وصولها إلى البندقية بقليل.

أما الطفل فقد نصروه، ونشأ مسيحيًّا، ثم دخل الدير وانخرط في سلك الرهبان الدومينيكانيين، وظل يقول إنه ابن السلطان، وظل الناس ينظرون إليه بهذه الصفة، وأطلقوا عليه اسم "بادري أوتوماثو" أو "بادري أثمان" أي الأب العثماني، أو الأب عثمان!

وقضى هذا الراهب الذي لم يعرف أباه، والذي أوشك أن يصبح وارثًا لعرش آل عثمان، جزءًا من حياته في أديرة إيطاليا، ثم انتقل إلى إسبانيا حيث انقطعت أخباره.

ولا يزال اسمه إلى الآن مدونًا في سجلات الرهبان الدومينيكانيين باسم الأب عثمان!

حواء

يهودية خانت زوجها، وخانت أباها، وخدعت السلطان،

فكان جزاؤها الموت

أصغى "حزقيال" لخالد أفندي وهو يبسط له اقتراحه، ويبلغه الشرط الوحيد الذي يشترطه عليه ليضع ثروته الواسعة عهدة بين يديه، وبعد أن فكر الصراف اليهودي هنيهة، رفع رأسه وأجاب بكلمة واحدة: "اتفقنا!".

وفي مساء ذلك اليوم نفسه، أصبحت "حواء" بنت "حزقيال" في ذمة "خالد أفندي" زوجة حليلة.

لقد رآها خالد أفندي، وعلق بها قلبه، وكان حزقيال يلح عليه بأن يوليه الإشراف على أعماله واستثمار ثروته، فاغتنم خالد الفرصة السانحة، وأفضى إلى الصراف بما يجول في خاطره.

وأنه مستعد لإجابة حزقيال في طلبه، واختياره دون سواه وكيلًا لأعماله، ولا يشترط عليه إلا أن يزوجه ابنته حواء، وتغلب الطمع في نفس الرجل على كل عاطفة، وطغى صوت المصلحة في أذنيه على كل صوت، فربط مصير وحيدته برغبة الرجل الثري صاحب القدرة والجاه، بدون أن يكون لها علم بالأمر، أو يؤخذ رأيها فيه.

وهكذا زفت حواء بنت حزقيال اليهودية بالرغم منها، إلى خالد أفندي حامل أختام السلطان وهي في الخامسة عشرة من العمر!

إن خالد أفندي أقرب الناس إلى البادشاه محمود خان الثاني سلطان البرين وخاقان البحرين، فقد أوفده سفيرًا إلى باريس، ثم استدعاه إلى الآستانة حيث عينه حاملًا لأختام السلطنة.

ولم تغفر الابنة لأبيها ما صنعه بها، فحقدت عليه كما حقدت على زوجها، وراحت تفكر في الانتقام من الاثنين، وتعد العدة في سكون الليالي الطويلة التي تقضيها وحدها، لإهلاك الأب والزوج على السواء!

وساعدتها الظروف، ومكر حواء مضمون النجاح، إذا ما وقفت الظروف بجانبها، فقد كان لخالد أفندي زوجة أخرى يونانية، سباها الجند في إحدى غزواتهم ببلاد المورة، وشاءت لها الأقدار أن تكون من نصيب حامل الأختام، ولكنها كانت تكرهه وتمقته، بسبب قسوته وغلاظته.

وجاء هذا الشعور الذي كان يختلج به صدر الزوجة الأولى، دعامة لشعور العداء الذي دفع بالزوجة الثانية إلى تدبير خطة للتخلص من الزوج المشترك، فقد تحالفت اليهودية واليونانية، ومنذ تلك اللحظة التي أصبح التفاهم بينهما تامًّا، سطر مصير خالد أفندي حامل الأختام في صفحات القدر! وضعت الخطة بين المرأتين ونفذت بدقة وإحكام.

دخل خالد أفندي ذات مساء إلى مخدع الزوجة اليهودية فلم يجدها، وسأل الخصيان والجواري والخدم عنها، فقالوا جميعًا إنهم رأوها تخرج وحدها في الصباح ولم تعد، وسأل الزوجة اليونانية فقالت: إنها لا تعلم من أمر ضرتها شيئًا.

فانفجرت مراجل الغضب في صدر الزوج، وعلم الصراف اليهودي بما حدث، فلطم خديه وبكى وانتحب، وهدد خالد أفندي وتوعد، ولكن ذلك كله

لم يرق الحجب عن سر اختفاء المرأة، فإن حواء هجرت دار الزوجية! ولكن هل لجأت إلى أحد في المدينة، أو رحلت عن البلاد، أو عمدت إلى الانتحار؟

كلا، إن حواء اليهودية لم تفعل شيئًا من ذلك كله، بل نفذت الخطة التي قد أعدت لها وسائل النجاح، فذهبت مع "قمقم أغا"، النخاس الذي يورد الجواري والعبيد إلى قصور السلاطين، فباعها مع فريق من الإماء، قائلًا: "إنها زوجة ضابط روسي هربت من كنف زوجها، وكانت العلاقات بين الدول العثمانية والإمبراطورية الروسية في ذلك الوقت على أسوأ ما يكون من التوتر".

وظلت الظروف تساعد المرأة، والمصادفات تبتسم لها، فتمكنت في بضعة أسابيع من التقرب من السلطان وانتزاع ثقته وعطفه، فأصبحت كلمتها مسموعة لديه ككلمة زوجها خالد أفندي، الذي ظل يجهل أن المرأة التي هجرته مختارة، قد أخذت تزاحم نفوذه عند صاحب العرش.

وتهمس في أذن محمود الثاني خلال الليل، بعبارات تهدم العبارات التي يهمسها هو في أذنه خلال النهار!

ولما أدركت حواء أن ثقة السلطان في زوجها قد تزعزعت، تحولت إلى الصدر الأعظم عبدالله باشا، وهو من صنائع خالد أفندي، الذي رفعه إلى دست الوزارة، وجعلت تدخل في روعه أن حامل الأختام ناقم عليه سرًّا، وأنه يسعى لعزله من منصبه، بل لقتله إذا استطاع، وإن خير وسيلة لاتقاء شره، أن يتحالف مع زعماء فرقة "الانكشارية" الذين يكرهون حامل الأختام، ويعلمون أنه يكيد لهم في الخفاء، ويعد العدة للفتك بهم.

أثارت الزوجة اليهودية إذن الشكوك والريب حول زوجها، وفي الوقت

ذاته كانت الزوجة اليونانية تنفذ الشطر الآخر من المؤامرة على الزوج المشترك، فتحرضه على فرقة "الانكشارية" وكان خالد من أشد الخصوم عداء لأولئك الجنود الطغاة الجامحين، فاندفع الرجل في محاربتهم جهارًا، موقنًا أن السلطان سيؤيده، لأنه يعتقد من جهته أيضًا أن "الانكشارية" أصبحوا خطرًا على العرش، وعلى البلاد بما يرتكبونه من أعمال الفوضى والفساد.

وفي صباح يوم ما، زحفت جمع الانكشارية إلى الشوارع والميادين المحيطة بالقصر الهمايوني، وتعالت هتافات وصيحات بلغت مسامع السلطان: "ليطرد خالد أفندي من القصر! نريد رأس حامل الأختام!".

وكانت حواء بجانبه فهمست في أذنه كعادتها: "أعطهم ما يريدون يا مولاي، ففي ذلك إرضاء لهم وراحة لك!".

وكانت تلك المظاهرة من صنع الصدر الأعظم الذي هرول مسرعًا إلى السلطان، وقال بعد أن قبل الأرض بين يديه: "لن تهدأ غضبة هؤلاء الجنود الثائرين يا مولاي، إذا ضحيت بحامل الأختام من أجلهم! فسلامة الدولة وإنقاذ العاصمة من الفوضى يقضيان بذلك".

فتجهم وجه "محمود الثاني" وتردد قليلًا قبل أن يصدر حكمه. ولكن الصيحات والهتافات تضاعفت واقتربت، فالتفت السلطان في النهاية إلى كبير وزرائه وقال: "سأجيبهم إلى طلبهم، لأنني أريد أن أتفادى سفك الدماء، ولكنني لا أريد أن يقتل خالد أفندي، الذي كان موضع ثقتي وعطفي، فليرسل إذن إلى المنفى في قونية، وأما هؤلاء الجنود العصاة، فإنني سوف أؤدبهم في المستقبل القريب!".

وصل خالد أفندي إلى قونية، ولجأ إلى تكية من تكايا الدراويش، على أمل أن يستدر عطف الانكشارية أصدقائهم وحلفائهم وظن أن حياته قد أصبحت في مأمن من كل خطر.

وما كان يدري أن اليهودية والصدر الأعظم عبد الله، شريكها في المؤامرة، يواصلان السعي لدى السلطان لحمله على القضاء عليه.

قال عبدالله لمحمود الثاني: "إن الانكشارية يا مولاي ينظمون مظاهرة أخرى، لأنهم علموا أن حامل الأختام لم يمت، وموته غايتهم وأمنيتهم!".

وقالت حواء للسلطان الهائم بحبها: "إن بقاء هذا الرجل حيًّا يا مولاي شؤم عليك وعلى العرش! فقد رأيت حلمًا أزعجني الليلة، وأخشى أن يتحقق الحلم، فاقتله، اقتله واكفنا شر دسائسه!".

وما كاد خالد أفندي يستقر في تكية الدراويش في قونية، حتى أقبل رسول من الآستانة يحمل أمرًا بقتله، وأخذ رأسه في سلة إلى السلطان!

أبرز خالد أفندي الخط الشريف القاضي بنفيه لا بقتله، فأبرز الرسول خطًّا شريفًا آخر يلغي الخط السابق ويقضي بالقتل خنقًا!

فثار حامل الأختام، واستل سيفه، وأراد أن يبيع حياته غالية، ولكن زبانية الرسول كانوا أسرع منه، فوثبوا عليه، وخنقوه بحبل من الكتان، وفصلوا رأسه عن جسده.

وهمست حواء في أذن السلطان: "مولاي، إن أملاك حامل الأختام وأمواله وجواهره، التي استولى عليها بيت المال، ليست غير جزء يسير مما

كان في حوزة ذلك الرجل، وعند الصراف اليهودي حزقيال الخبر اليقين!".

وفي اليوم التالي، كان حزقيال يؤدي حسابًا عسيرًا!

لقد وعده رسل السلطان بأن يعفو عن حياته، ويتركوه حرًّا في الذهاب إلى حيث يشاء، على شرط أن يسلمهم ثروته وثروة موكله، فسلمهم حزقيال كل شيء، وبلغت قيمة ما حملوه في الصناديق إلى بيت المال ثمانية ملايين من القروش!.

وأطلق سراح الصراف، فذهب إلى الميدان الذي عرض فيه رأس القتيل في طبق من الفضة، أمام باب من أبواب القصر، ووقف ينظر إلى ذلك الرأس والدموع تترقرق في عينيه.

ولاحت منه التفاتة، فإذا به يرى امرأتين تقتربان، ورفعت كل منهما حجابها، فعرف الصراف ابنته!

فقد ذهبت "حواء" وكانت على موعد مع ضرتها اليونانية، إلى الميدان لإلقاء نظرة أخيرة على الزوج الذي كانت المرأتان سببًا في هلاكه..

وأسرع الرجل إلى ابنته فاتحًا ذراعيه، مناديًا بصوت تخنقه العبرات: "حواء! ابنتي!".

لكن حواء نفرت منه هاربة، وتجمع الناس سائلين ما الخبر؟ وإذا بهم أمام الصراف اليهودي جثة هامدة على الأرض وقد مات بالسكتة القلبية، وإذا المرأتان تخترقان جموع المتطفلين، فتدخل أحداهما من باب القصر، وتختفي الأخرى في الشوارع والأزقة.

وعلم "محمود الثاني" من جواسيسه أن امرأة من الحريم السلطاني قد خرجت وحدها إلى الميدان، وأن الصراف اليهودي خاطبها فهربت منه مع رفيقة مجهولة.

فبحث السلطان وحقق، وعلم في النهاية أن حواء هي تلك المرأة، واعترفت اليهودية بكل شيء، وأطلعته على سرها، فهاله أن تكون تلك المرأة النمامة الدساسة قد استغلت عطفه وثقته، لتنتقم من زوجها وأبيها، فأمر بقتلها!

وأسدل الستار في هذه المأساة على جثث ثلاث: جثة خالد أفندي ضحية قسوته وغلاظته، وجثة حواء بنت حزقيال اليهودية ضحية غدرها ومكرها، وجثة حزقيال اليهودي ضحية جشعه وطمعه، أما الزوجة اليونانية فقد اختفت، ولم يسمع عنها أحد خبرًا منذ ذلك اليوم.

وأما "الانكشارية"، فقد لاحقهم السلطان محمود الثاني بنقمته، وفتك بهم جميعًا في صيف سنة ١٨٢٦.

الفهرس